
رواية
ارتباك
الشيماء عبدالعال
ساحر الكتب


ساحر
الكتب

إهداء

«إلى كُل من وقفوا بعيدًا مكتوفي الأيد يشاهدونني وأنا أسقط

لولا أعينكم التي كانت تشاهد ولا ترى ما كتبت اليوم شيئًا»

بيان

1

(هي وطواحين الذكرى)

نتعلم السكوت.. فيصبح منهاجًا نسير عليه حتى يضيع مع السكوت كُلُّ شيءٍ.. فتضيع معه الحياة.

الأيام التي غدت والآتية تحمل معها العديدَ من الأوجاع، أوجاع اعتقدت «نبيلة» أنها انتهت مع تقدُّم العمر، ولكن هيهات أن تنتهي؛ فهي تتجدد بشكل أعمق وكأنها تتطور مع تقدُّم الزمن بعُمقٍ أكثر من السابق أو ربما كانت تشعر ذلك لأن ما فات من الوجع قد اندمل ولم يعد يؤلم مثل السابق.. هكذا نحن عند لحظات الوجع الأولى؛ نشعر أن وجعنا لا مثيل له، وأن ذاك الألم الذي نبشَ بأظفاره في قلوبنا لن ينتهي وسوف يستمر إلى الأبد وريثما تمر الأيام فنجد ألمًا آخر يدب حوافرة في طريق لم تطأه قدم.. فتختلف المواقف، ولكنَّ الألمَ واحدٌ.



تجلس «نبيلة» على كرسيها الأثير تحمل «آدم» على كتفها وتربّت على ظهره في حنوٍّ بالغٍ وعيناها تقطران دمعًا صامتًا وساخنًا وهي تستمع إلى كلمات أم «أمل» جارتها التي سكنت الشقة التي تعلو شقتها بطابق منذ خمس سنوات، وما لبثت حتى وطدت علاقتها بالأولى جيدًا، وما إن عرضت عليها «أمل» أن تسافر مع الأخوين إلا ووافقت لتمنيها أن تكون من نصيب عامر.

جاءت لتجلس معها لتؤنسها في غياب الثلاثة الذين شقوا طريقهم إلى القاهرة في سَفرة تكاد تودي بنفوسِهم جميعًا.. حاولت «نبيلة» أن تُسكِت أم «أمل» عن بعض تساؤلاتها التي أثارت حفيظتها قائلة:

- ماكانش له داعي سفر «أمل» معاهم.. تعبناها معانا.

لم تنتبه كثيرًا أم «أمل» أن «نبيلة» تحاول أن تغيِّر دفة الحوار إلى شيءٍ آخرَ بل ظنَّت أنها ربما تريد أن تشير إلى «عامر» وأمل في شيءٍ يضعهما بين قوسين يضمهما معًا للأبد.. فتبسمت قائلة:

- لا مفيش تعب ولا حاجة تعبكم راحة انتي عارفة حب «أمل» لعامر وبيان.

كانت تعني أن تقدُّم «عامر» على بيان، ولكن لم تكن رأس «نبيلة» تعي أيًّا من تلك التلميحات التي كانت ترمي لها فعادت أم «أمل» لتستكمل قائلة:

- يارب نفرح بيهم جميعًا.. وربنا يعوض على «بيان» بزوج صالح يتقي ربنا فيها.

لم تعلق «نبيلة» على أيٍّ مما يقال.. إلا أنها عندما سمعت اسمَ «بيان» فعادت أوجاعها إليها وكأنها قد فارقتها قائلة: «يا رب».

كُلٌّ يغني على ليلاه.. طواحين الهواء التي تعتمل بداخل رأس «نبيلة» لا يستطيع أن يوقفها أيُّ حديثٍ.. لا كلام أم «أمل» ولا غيرها ولم يستطع أن يخرجها من الوجع غير صوت «آدم» وهو يقول بصوت أجهده البكاء قائلاً:

- تيتة.. ماما.. سِكينة.. عامر.

ذابت أوجاعها عندما همس بلقب تمنته كثيرًا (تيتة).. ولكن مع بقية كلماته المتقطعة وضع على جراحها مِلحًا فربتت على ظهره بضع تربيتات منتظمة وهي تهز جسدها جيئةً وذهابًا لعله يعود إلى نومِه.. أخذتها من أوجاعها مرة أخرى أم «أمل» لتغرق من جديدٍ في بحر تساؤلاتها وكلامها الذي لا ينتهي في محاولة منها أن تخرجها مما هي فيه والذي لا تعلم عنه شيئًا سوى أنَّ «بيان» مُتعبة ولا تعلم ما كنه هذا التعب الذي يجعل «نبيلة» مهمومة كلَّ هذا الهم.. فقالت بفضولها الزائد:

- هو فين أبو عامر؟؟ ماشُفتوش من ساعة ما جيت.

لم تجبها «نبيلة» على تساؤلها أو ربما تساءلت هي أيضًا.. أين أنت يا جلال؟ ظلت طيلة حياتها تسأل نفسها هذا السؤال في كل موقف وفي كل حين – أين أنت – ولم تجد أبدًا لهذا السؤال أيَّ إجابة في نفسها.. في خلفية أفكارها كانت أم «أمل» تتحدث:

- الله يكون في عونكم.. بس ماقُلتليش المحروسة «بيان» مالها؟ يارب يكون خير؟

لم تجبها أيضًا ليس لحاجتها للسكون، ولكن كان هناك ضجيج يعتمل في رأسها فغطى على كل شيء حولها فلم تعد تستمع إلا له.. كان يأتيها صوتُ أم «أمل» بعيدًا خافتًا.. ولم تتعجب من أنها لم تجد إجابة لأسئلتها التي انهمرت منها كسيلٍ لا يجد سدًا ليقف أمامه.

- هو أبو اسم الله عليه «آدم» مابيسألش عليه؟؟

ردَّدَت في نفسها «آآه منكِ يا أم «أمل» لمَ تصرين أن تفتحي جميع الجراح في آنٍ واحدٍ، ألا يكفيكِ ما أنا فيه!»

- هيَّ «بيان» كانت بتصرَّخ من يومين ليه كفى الله الشر؟ وسمعتك بتعيطي وتصرخي انتي كمان، أنا مارضتش أنزِلُّكم في الوقت المتأخر ده، حتى سألت

«أمل» ماقالتليش حاجة غير إن «بيان» تعبانة شويتين، لعله خير إن شاء اللّه؟

«من يومين حدثَ ما لم يخطر على عقل بشر» هكذا رددت «نبيلة» في عقلها المنهك ولم تنبس ببنت شفة.. بل عضت على شفتيها حتى كادت أن تدميها.. لم تنتظر أم «أمل» أي إجابة وكأنها معتادة أن تتحدث ولا تجد ردًا لحديثها؛ فاستكملت قائلة:

- إن شاء اللّه خير.. إنتوا من خيرة الناس.

«خيرة الناس يا أم «أمل» ستصبح سيرتهم على كل الألسنة التي كلما حاولنا إخراسها تُعيد الكرة مرة أخرى».. ردّد قلبها هذه الكلمات وانهمرت دموعها لتحاول مسحها حتى لا يراها الصغير الذي بدَّل نومته فارتكن إلى ذراعها يداعب سلسالها الذهبي المتدلي من عنقها.. مرة أخرى قالت أم أمل:

- هو اسم النبي حارسه «آدم» ماله؟

قالتها بعدما لاحظت تلك الربطات الطبية التي على عنق الصغير وهو يتألم أحيانًا وأحيانًا أخرى يلعب ناسيًا ما به من ألمٍ.. ليتنا كالأطفال نتألم فنلهوا فننسى الألم..

كانت «نبيلة» قد أصابها من الضجر ما لا يحتمله بشر فقامت من مكانها وهي تحمل الصغير قائلة:

- أنا هقوم أنيِّم «آدم» في أوضته.. البيت بيتك طبعًا انتي مش غريبة.

وهربت من أمامها لتجد الذكرى قابعة في مكانها على فراش «آدم» كوحشٍ ينتظر فريسته العرجاء؛ فلم تستطع الهروب منه وتركته ليفترسها في هدوءٍ غير مبالية بأوجاع الافتراس؛ فما تحمله بداخلها أكبر من أيِّ مخالب ستنهش في عقلها المنهك الذي هلهلته المصائب مذ كانت «بيان» في نفس عمر صغيرها ذي الثلاثة أعوام.

***

ذِكرى قديمة

في شتاء قارص يحمل بداخل طيّاتِه العديدَ من الغيوم التي ملأت السماء فلبّدتها وأخفت معالم شمسها وقمرها فأصبحت كدخانٍ ناتج عن احتراق السماء بالشُّهُب واستمر الزحف الذي حركته الرياح وهي تصدر صريرًا ترتجف له القلوب.. ولم تكن الرياح فقط التي تصدر هذا الصرير بل أيضًا بكاء «بيان» الصغيرة التي تبكي بكاءً يلين معه الحجر.. وصدرها يئزُّ كمرجل على نار من كثرة الارتجاف الذي كانت به.

تحملها «نبيلة» وتهرول بها إلى صنبور المياه البارد لعلَّ حرارتها تنخفض وقلبها ينفطر من برودة المياه على جسد الصغيرة التي لا يتجاوز عمرها الثلاثَ سنوات وهي تبكي وترتجف من حرارة جسدها الذي يرتطم بالماء البارد فتتألم معه.. تلفها بمنشفة كبيرة وتخرج بها إلى الغرفة فتجد «جلال» الذي يحاول أن يستكمل نومه رغم كل هذا الصراخ فلا يجد بُدًّا من أن يستكمل دائرة الصراخ فيصرخ هو الآخر بدورهِ:

- عاوز أنام، خُدي بنتك واطلعي بره.

لم يتكلف عناء السؤال عمَّا بها ولم تنطق «نبيلة» أيضًا، استكانتها كانت مثيرة للشفقة أحيانًا، وأحيانًا أخرى كانت تنتج عن ضعفِ مَن ليس له حيلة، ولكنها لم تكن لتعلم أن سكونها الذي تربَّت عليه سيكون سببًا في مأساة رأتها فيما بعد في أغلى ما عندها.. «بيان».

***

أخرجتها من أفكارها أم «أمل» وهي تنادي عليها قائلة:

- يا أم عامر.. «أمل» وعامر راجعين في الطريق إطمني.

سألتها «نبيلة» عن بُعدٍ قائلة:

- وبيان.. هي مش معاهم ولّا إيه!!

لم تُجبها وكأنها تؤكد على تخمينها وساد الصمت إلا من أنفاس «آدم» الصغيرة.

* * *

2

(ثلاثتهم على الطريق)

تلك الطرق التي عليك أن تسير بها ولا تعلم ما الهدف المرجو منها تكاد في بعض الأحيان تصيبك بالجنون، بل ربما في كل الأحيان.

لم يكن «عامر» يعي من الأمر شيئًا سوى مشاهد الطريق التي تنبري أمامه مشهد تلو الآخر وكأنه يقلب في كتاب مليءٍ بالصور، ولكنها أصبحت مملة وهادئة بعض الشيء، ألفتها عيناه في رتابة فتركت باب عقله مواربًا لأفكاره لكي تتسلل كسرب نملٍ أتى من اللا شيء لكي يظفر بضحيَّته، لم يقاوم دبيبهم في عقله ولا حاول أن ينفض الأفكار التي احتلت عقله طوعًا بل استسلم لها في خضوع تاركًا عينيه تتأرجحان مع هزات الحافلة التي تقله إلى القاهرة ولا يعلم كيف ستسير سفرته التي لم يخترها بل فُرضت عليه رغمًا عن أنفهِ وعن أنف الجميع.

عامر شاب في الثلاثين من عمره لم تمر أيامٌ على إتمامه لعقوده الثلاثة التي لم يفعل بها شيئًا سوى إتمام شهادته الجامعية في هدوءٍ، مثله مثل العديد من شباب غيره، يعمل مدرِّبًا في صالة رياضية لما يتمتع به جسده من عضلات مفتولة جراء دراسته الرياضية في كُلية للتربية البدنية في مدينته الصغيرة نسبيًا.. ساعده اللحاق بها أنه كان يلعب في مدرسته رياضةَ كمال الأجسام ولم يحالفه الحظ في أن يحوز على وظيفة حكومية كمدرس للألعاب مثلما يقولون.

ظلَّت أمُّه تنتظر أي فرصة لتعيينه على مدار عامين من تخرجه حتى سئمت الانتظار أو تغاضت عن أن يظهر انتظارها جليًا أمام الجميع قائلة جملتها المعهودة «لا أحد يعلم أين الخير»، «عامر» أيضًا لم ينتظر فشقَّ طريقه بين الصالات الرياضية كمدرب خاص أو كوظيفة لا تدر عليه الكثير من المال، ولكنه ظل يحاول دون أن يمنِّي نفسه ببناء مستقبل أو حتى أن يظفر بزوجة رغم إتمامه الثلاثين، ولكن لم يعر الأعوام اهتمامًا ولا حتى بمشاعر «أمل» التي كانت تبثه الحب

خفاءً، لم يكن زهدًا منه في الحب، ولكنه كان يرى أنه لا يصلح له.

انتشله صوتُها الرقيق من أفكاره وهي تنادي عليه في خفوت من بين المقعدين المقابلين له قائلة:

- عامر.. إحنا هنوصل إمتى؟

نظر في ساعته بعينيه البنيتين في انتباه؛ فوجدها الحادية عشرة وبضع دقائق فردَّ قائلاً:

- أعتقد ساعة ونص بالكتير إن شاء الله.

التفتت أمامها في تململ وهي تعتدل في جلستها.. تلك هي «أمل» التي تحمل الحب كخبيئة في قلبها لمن لا يفصلها عنه سوى بضعة سنتيمترات ولا تقوى على أن تصرِّح به له؛ فما إن تنظر إلى عينيه الحادتين حتى تذوب الكلمات على أعتاب شفتيها فتعود أدراجها إلى قلبها صاغرة لا تقوى على البوح ولا حتى الكتمان الذي تفضحه بعينيها عندما تنتقلان بين عينيه البُنيّتين في رجاءٍ علَّه يشعر بها.. كانت تعلم أنه يشعر

ولكنه لم يستسلم يومًا لندائها التي تبثه له حتى في أحلك الظروف.. وهل هناك أحلك مما يمران به اليوم.. لا تعلم ربما يأتي الأحلك، ولكن لا تعلم سوى أن الظلام اجتمع في عينيّ «عامر» فأصبح لا يبصر أحدًا سوى «بيان».

ظل «عامر» يراقب صورة «بيان» المنعكسة على زجاج الحافلة مع الطريق الذي ارتسم على وجهها فيطبع اصفرار الصحراء على محياها وهي الفتاة القمحية.. لم تكن تحتاج إضافة رمال الصحراء لتكسبها اصفرارًا هي في غنىً عنه.. اكتسبته من سنوات عِجاف فعلت بها الأفاعيل فتبدَّلَت من فتاةٍ إلى زوجة، إلى أم كادت أن ترتكب جريمة في حقها وحق كل ممن حولها..!

التمعت في عيني «عامر» بضع دموع ابتلعها في صمتٍ وأرجع رأسه للوراء علّها تعود إلى منبعها في صمت، ولكن لم تعد وآثرت الركون على جفنيه فخبئها بكلتا يديه وعاد من جديد إلى اهتزاز الحافلة الذي لا

يختلف كثيرًا عن اهتزاز روحه تجاه المجهول الذي يسير إليه.

عادت «أمل» من جديد تبثه اهتمامًا لا طاقة له به قائلة:

- مالك؟ إنت كويس؟

نظر في عينيها لا يعلم ماذا يقول فردَّ عليها بإيماءة كاذبة أن: «نعم بخير».. ولكن لم يسعه صوته أن يغلِّف الكذبة بكلمات سخيفة مثل هذا السؤال البالي الذي لا يملّ أحدٌ من طرحه ولا نَمِلُّ أيضًا من الكذب في الرد عليه معلنين بمنتهى الفخر «نعم إننا بخير»، هي أيضًا تعلم أنه يكذب ولكن كانت قد اشتاقت لصوته فحرمها منه فاختلست النظر إلى عينيه اللتين كانتا تنبئان بقيام حربٍ ضارية على أعتابها فكستها حمرةٌ معلنةً استسلامها لملح لم تعتده.. ملح الدموع التي يحتبسها في جوفه ويأبى كبرياؤه أن يجعلها تنساب الأطفال.



ليتنا نطالع الحياة كالأطفال؛ نرى بها كل شيء مبهرًا ورائعًا، ولا ندرك من الحياة أي شيء سوى تلك الصورة الزجاجية التي تبثنا وهج الحياة غير ممتلكين منه شيئًا سوى ألعاب تافهة تسعدنا ونضحك بها.

الحياة قاسية جدًّا على مَن هُم مثلنا.. من يعيشون الحياة البسيطة يحاولون العَيش، ولكن تأبى الحياة أن تربِّت على قلوبهم ربتات مطمئنة وكأنها تقول لهم (هناك أُناس لم تُخلق لهم الحياة.. ويكابدون معاناة الوصول للموت).

أطلت عليهم مشارف القاهرة فازدادت دقات قلوبهم.. «بيان» في عالمها الخاص، أما «أمل» و «عامر» فكان القلق قد استبد بهما.. «عامر» كَست وجهه علاماتٌ أكثر حدة أما «أمل»؛ فحاولَتْ أن تسيطر على لهاث قلبها الذي يكاد يُسمِع «بيان» التي هي فاقدة للسمع.. والنطق أيضًا..!

وصلت الحافلة بين صياح الحمالين وبين نداء سائقي سيارات الأجرة، وبين تكالب المسافرين على استخراج

حقائبهم من باطن الحافلة وكأنهم في غرفة ولادة متعسرة.. أما هم فلم يكونوا يحملون حقائب.. يدعون الله أن يعودوا من تلك السَّفرة مثلما ذهبوا وتظل أمنياتهم خبيئة القدر التي لا يعلمها إلا الله.

أحاط «عامر» بكتف «بيان» وخلفهما «أمل» تمشي في خفوتٍ معلّقة عينيها بذراع «عامر» الذي يحيط صديقتها التي صادقتها من أجل أخيها.. لم تنكر أنها تحب تلك الفتاة التي يحتويها «عامر»، ولكنها كانت تتمنى لو يحتويها مثلما يفعل معها حتى لو كانت أمنيتها أن ترى احتواءه لها من باب الشفقة لا الحب، وليتها تعلم أن مشاعر الشفقة أكثر إيلامًا من الكره!

كانت تعلم أنه يحب «بيان» بملء قلبه، ولَكَم تمنت أن تحتل ولو بقعة بحجم عقلة الإصبع بداخله لتكون سببًا لها في أن تستمر على قيد الحياة من أجل تلك البقعة الضئيلة كصغر حجمها، تلك الفتاة التي لا يشي حجمها بسنها الحقيقي فما إن تراها حتى تخبرك براءة عينيها أنها في الثامنة عشر من عمرها وتجبرك خفتها على أن تسقط عشر سنوات منه رغمًا عنك.. تقربت من «بيان»

في محنتها الأولى بعدما قصها عليها «عامر» فتعلمت منه كيف تحادثها بالإشارة، ولكن دام الصمت فيما بعد كثيرًا حتى أصبحت الإشارات لا تُفهَم ولا تحل علامات الاستفهام التي تجول في عقل الجميع.

يطُلق عليها.. «بيان».

انطلقوا إلى وجهتهم واجمين يتبعون هواتفهم كل منهم يفتح خريطته الإليكترونية في صمت.. أما «بيان» فاكتفت بمتابعة السيارات والمارة في غيابٍ عن كُلِّ ما يمرون به، وعندما وصلوا وِجهتهم تذكَّر «عامر» أنهم لم يتذوقوا شيئًا منذ الصباح عندما وقعت عيناه على عربة الفول القابعة في مدخل طريقهم إلى المشفى فتوقَّف ليقول لهم ويداه تتحركان بالإشارة لتفهم «بيان»:

- إنتوا مش جعانين ولَّا إيه.. أنا جعان.

فابتسمت «أمل» موافقة على شعوره بالجوع؛ فهي أيضًا تكاد أمعاؤها تتقلص من قلة الطعام ثم هللت



كالأطفال:

- أنا خلاص مش قادرة هموت من الجوع.

ترقبا «بيان» أن تدلي بأي إجابة فلم تشاركهما، فأردف «عامر»:

- تعالوا نجرب ناكل من على عربية الفول اللي هناك دي.. بس ماليش دعوة لو حد جاله تسمم.

تبعته ضحكةُ «أمل» مؤكِّدة على كلامه مستكملة الحديث:

- الجوع كافر مايعرفش عربية من مطعم.

وقفوا إلى العربة البسيطة ليبتاعوا لقيمات تشد من أزرهم قليلًا قبيل أن يتخذوا طريقهم إلى وِجهتهم المنشودة التي طال بحثُهم عنها قبل اتخاذ هذا القرار للقيام بتلك الرحلة المجهولة

كُلٌّ منهما أخذ شطائره ليلتهمها في جوعٍ، إلا «بيان»..

وضعتهم في حجرها بعد أن استقرت على رصيفٍ بجانب العربة، وإذا بها تقطع الشطيرة لقيمات صغيرة.. وتلقي بها في وجهة واحدة لا تتغير وهي تشيح بيدها وعيناها تقطران ذعرًا، نظر «عامر» تجاه تلك البقعة فوجد اللقيمات تتجمع بها ولا يوجد حتى هرة في الجوار فسألها بالإشارات:

- انتي بترمي أكلك ليه؟

فنظرت له في ذُعرٍ.. ثم قالت بعدما تركت شطائرها في حجرها قائلة بلغة الإشارة:

- لا لا مفيش حاجة.

أيقن «عامر» أنَّ عليهم التوجه للمشفى مباشرة.

أشار لهما بأنَّ عليهما الذهاب قائلًا:

- يلا بينا إحنا كدة هنتأخر عن العيادة النفسية الخارجية في المستشفى.

* * *



3

(سأخبرهم ذاتَ يومٍ)

ليتهم يعلمون أن الاحتياج شيءٌ قاتلٌ.. ترى لو كانوا يعلمون.. لأعطوا!!

رسائل إلى مجهول

«أعلم أنك غاضب منّي على الدوام لأني لا أنفِّذ تعليماتك ولا أعلم لماذا تُملي عليَّ تلك الكلمات، كل الذي أعلمه أني أخافُ منك.. بل إني أخاف من كل شيء، إشاراتك لي تثير الرعب في قلبي.. ولا أعلم لمَ أكتب لك تلك الكلمات ربما لأني لا أقوى على الحديث معك أو حتى لا أعلم إن كنتَ تفهم لغة الإشارة الخاصة بي أم لا.. بل لا أعلم أيضًا إن كنت تسمع مثلَ الباقين وتتحدث، أم إنك أصمّ وأبكم مثلي، فلم أختبر أن أراك حتى تتحدث.. كلها إيماءاتٌ تخبرني أنك غاضبٌ من شيء لا أعلم كنهه.. بيد أني أحيانًا كنت أفعل كل ما يرضيك، ولكن أيضًا أجدك تبتسم بطرف

شفتيك منبئًا إياي أن ما فعلته يستحق السخرية.. لا أعلم إن كنتَ ستقرأ تلك الحروف المبعثرة أم ستهزأ مني لأني أكتبها ولا أخبرك بها.. سامحني فإني لا أنام من شدة الخوف».

***

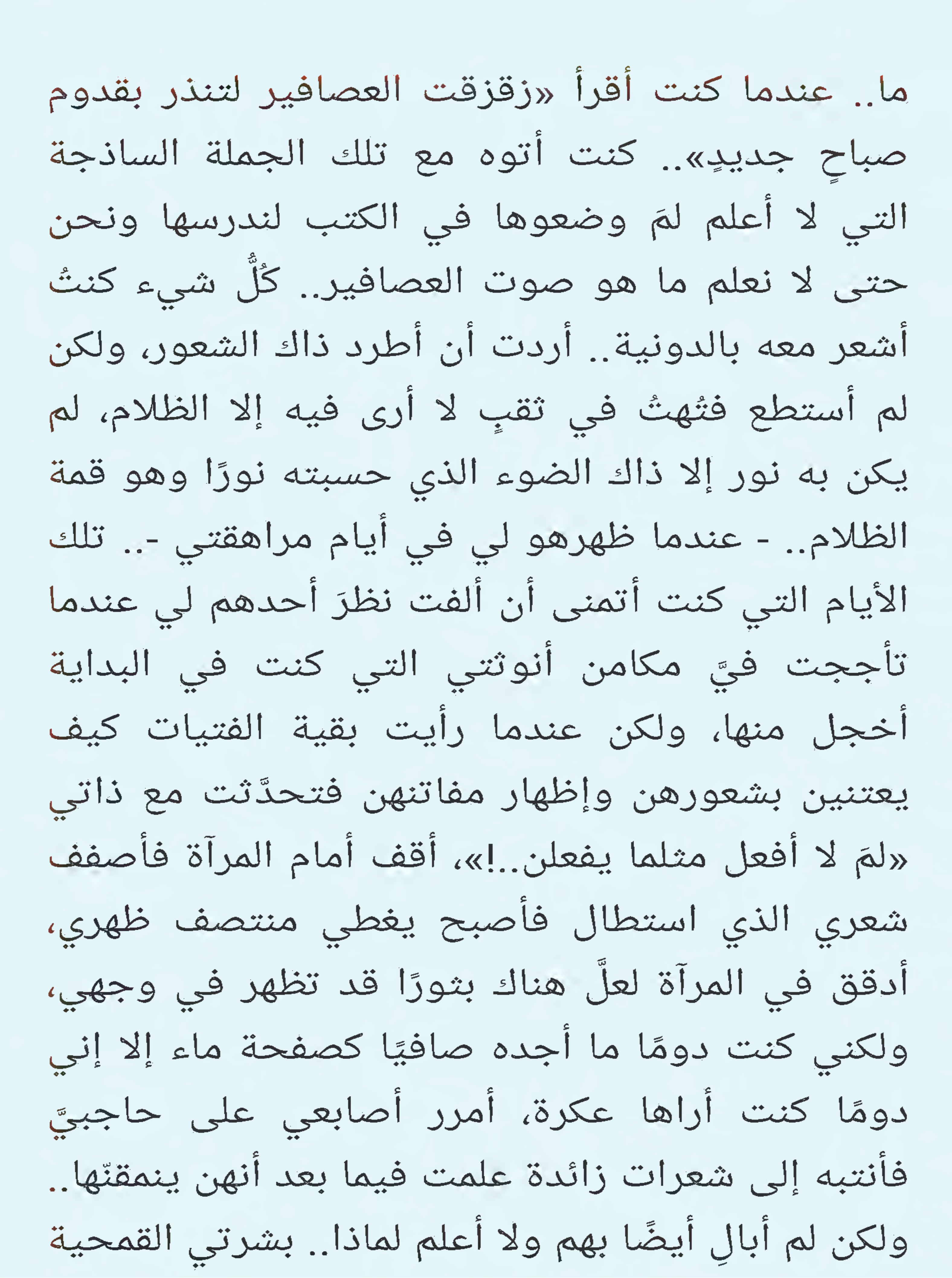
أنهت «بيان» خطابها بعدما ذيَّلته بإمضاء اختارته لها باسم «ظِلال دمية».. كُلٌّ منا يرى نفسه بصورة ما هناك من يرى نفسه علَّامة العلماء الذي لا يُقهَر في أيِّ نقاشٍ يدخل فيه وكأنه في حرب شعواء يرتدي خوذة حديدية شاهرًا سيفه ويقبل على غريمه بكامل قوته فقط ليقطع لسانه الذي يقول عكس ما يتفوه به الفارس المغوار، وهناك مَن يرى نفسه مترفِّعًا عن أي حديثٍ قائلًا في ذاته: «فليقال ما يقال فكل ذلك لا يعنيني» هو نوعٌ لا مبالي يظهر لا مبالاته للجميع، ولكن في قرارة ذاته لا يقوى على شيءٍ، أما «بيان» تلك الفتاة الصماء البكماء فلم ترَ ذاتها إلا فقاعة هواء.. لا تحمل شيئًا ذا قيمة، تعيش في عالمٍ مُصمتٍ لا تعلم ما يجول خارجه.. في بداية الأمر كانت مهتمة أن تعلم

ما الذي يدور خلف أذنيها الأصمتين، ولكن ولكثرة التذمر من أسئلتها التي لا تنتهي فقدَتْ اهتمامها بما يدور حولها فقبعت داخل فقاعتها والظل الذي يحوم حولها لا تكترث لشيء غيره.. كيف يراها وما تقيمه لمَ تفعل.. هل تفعل ما يحب أو ما يكره.. لا تعلم شيئًا سوى أنه دائما ما يتذمر في وجهها لدرجة تثير رعبها أحيانًا، وأحيانًا أخرى يثير حنقها وتتمنى أن يختفي من حياتها للأبد ولكن لا تستطيع أن تبعده قيد أنملة!

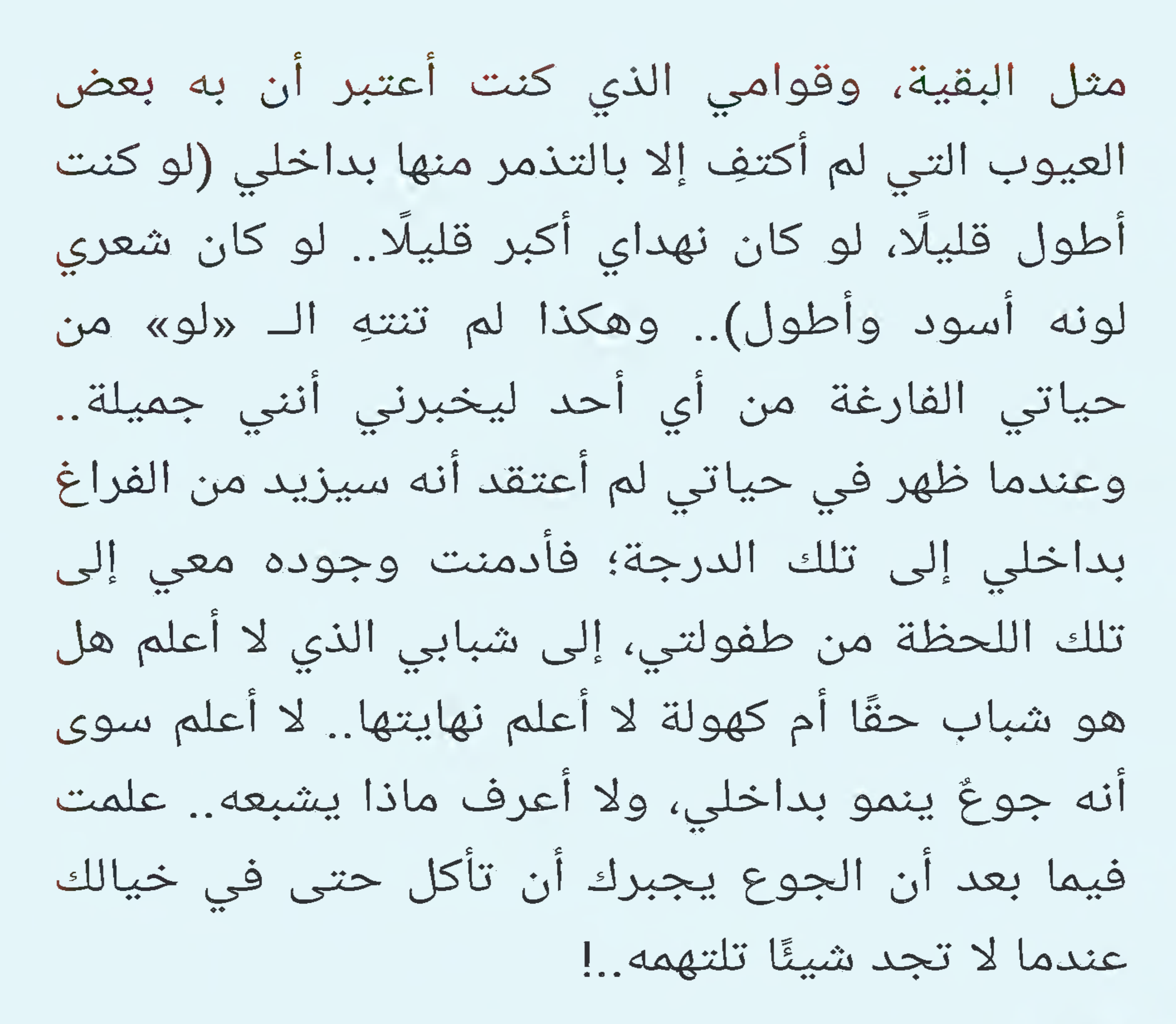
***

من يوميات «بيان»

لم أعلم يومًا ما سبب صممي الذي كرهته كثيرًا، ولكن ما لبثت حتى اعتدت عليه رويدًا رويدًا.. خفَّفَ عليَّ الأمرَ أني كنت في مدرسةٍ للصم والبكم؛ فكنا جميعًا سواءً؛ نتحدث بأيدينا ونفهم بأعيننا.. كان يثير فضولي كيف تكون الأصوات.. أنظر إلى كل شيء.. كيف يكون صوت ذاك العصفور الذي يفتح منقاره منذِرًا بصوتٍ ما لا أعلم عنه شيئًا فأظنه يُطلِق استغاثةً



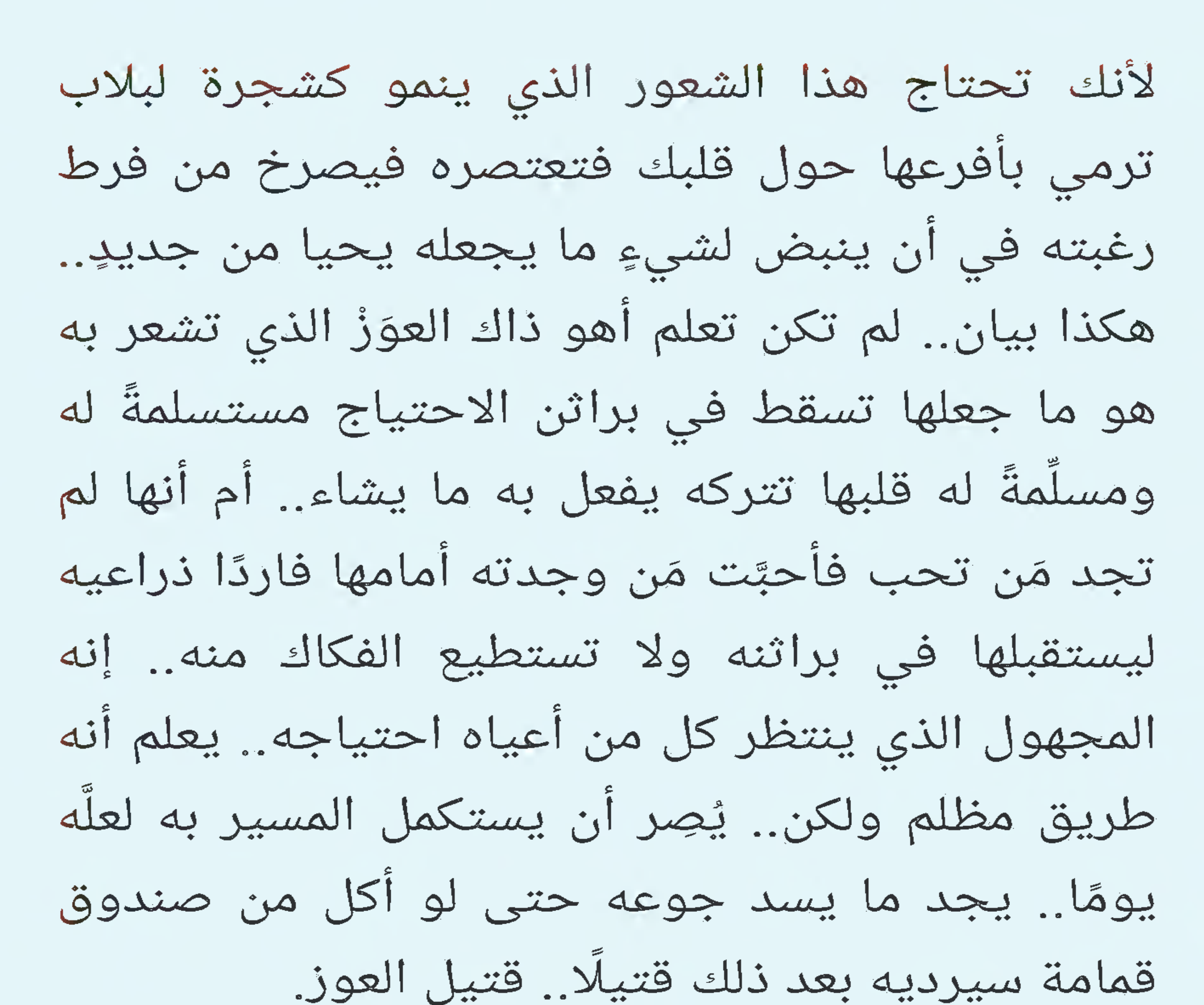
ما.. عندما كنت أقرأ «زقزقت العصافير لتنذر بقدوم صباحٍ جديدٍ».. كنت أتوه مع تلك الجملة الساذجة التي لا أعلم لمَ وضعوها في الكتب لندرسها ونحن حتى لا نعلم ما هو صوت العصافير.. كُلُّ شيء كنتُ أشعر معه بالدونية.. أردت أن أطرد ذاك الشعور، ولكن لم أستطع فتُهتُ في تقبٍ لا أرى فيه إلا الظلام، لم يكن به نور إلا ذاك الضوء الذي حسبته نورًا وهو قمة الظلام.. - عندما ظهرهو لي في أيام مراهقتي -.. تلك الأيام التي كنت أتمنى أن ألفت نظرَ أحدهم لي عندما تأججت فيَّ مكامن أنوثتي التي كنت في البداية أخجل منها، ولكن عندما رأيت بقية الفتيات كيف يعتنين بشعورهن وإظهار مفاتنهن فتحدَّثت مع ذاتي «لمَ لا أفعل مثلما يفعلن..!»، أقف أمام المرآة فأصفف شعري الذي استطال فأصبح يغطي منتصف ظهري، أدقق في المرآة لعلَّ هناك بثورًا قد تظهر في وجهي، ولكني كنت دومًا ما أجده صافيًا كصفحة ماء إلا إني دومًا كنت أراها عكرة، أمرر أصابعي على حاجبيَّ فأنتبه إلى شعرات زائدة علمت فيما بعد أنهن ينمقنّها.. ولكن لم أبالِ أيضًا بهم ولا أعلم لماذا.. بشرتي القمحية



مثل البقية، وقوامي الذي كنت أعتبر أن به بعض العيوب التي لم أكتفِ إلا بالتذمر منها بداخلي (لو كنت أطول قليلًا، لو كان نهداي أكبر قليلًا.. لو كان شعري لونه أسود وأطول).. وهكذا لم تنتهِ الـ «لو» من حياتي الفارغة من أي أحد ليخبرني أنني جميلة.. وعندما ظهر في حياتي لم أعتقد أنه سيزيد من الفراغ بداخلي إلى تلك الدرجة؛ فأدمنت وجوده معي إلى تلك اللحظة من طفولتي، إلى شبابي الذي لا أعلم هل هو شباب حقًا أم كهولة لا أعلم نهايتها.. لا أعلم سوى أنه جوعٌ ينمو بداخلي، ولا أعرف ماذا يشبعه.. علمت فيما بعد أن الجوع يجبرك أن تأكل حتى في خيالك عندما لا تجد شيئًا تلتهمه..!

***

الاحتياج.. ذاك الوحش الذي ينمو بداخلك منذ الطفولة ينبئك بأنك تريد ولا تجد ما تريد.. تريد أن تأكل فتبكي فتجد من يعطيك.. وعندما تكبر لا تجد الحياة تسير على هذا المنوال فليس كل ما تحتاجه تجده.. تحتاج للحب فترتمي في أحضان حبٍّ زائفٍ فقط



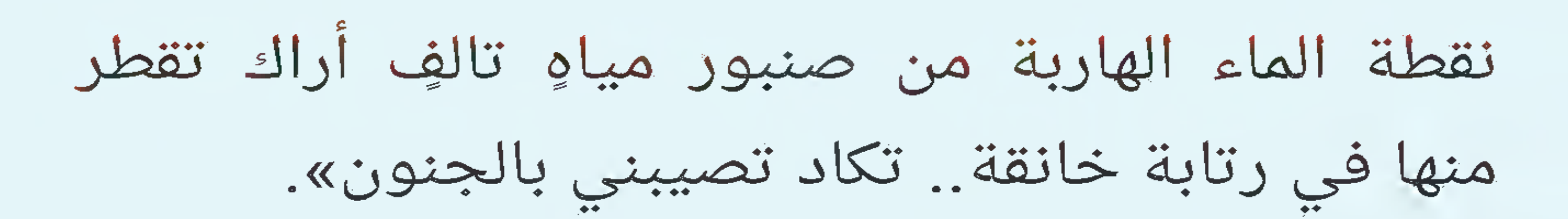
لأنك تحتاج هذا الشعور الذي ينمو كشجرة لبلاب ترمي بأفرعها حول قلبك فتعتصره فيصرخ من فرط رغبته في أن ينبض لشيءٍ ما يجعله يحيا من جديدٍ..

هكذا بيان.. لم تكن تعلم أهو ذاك العوَزْ الذي تشعر به هو ما جعلها تسقط في براثن الاحتياج مستسلمةً له ومسلِّمةً له قلبها تتركه يفعل به ما يشاء.. أم أنها لم تجد مَن تحب فأحبَّت مَن وجدته أمامها فاردًا ذراعيه ليستقبلها في براثنه ولا تستطيع الفكاك منه.. إنه المجهول الذي ينتظر كل من أعياه احتياجه.. يعلم أنه طريق مظلم ولكن.. يُصِر أن يستكمل المسير به لعلَّه يومًا.. يجد ما يسد جوعه حتى لو أكل من صندوق قمامة سيرديه بعد ذلك قتيلًا.. قتيل العوز.

***

رسائل إلى مجهول

«أما آنَ لك أن تبتعد عنّي.. بِتُّ أخاف من الجلوس مع أي أحد حتى لا يلحظوا انشغالي بك، رسائلك التي تبثها لي لا تنقطع.. أراك في كل شيء حولي حتى


نقطة الماء الهاربة من صنبور مياهٍ تالفٍ أراك تقطر منها في رتابة خانقة.. تكاد تصيبني بالجنون».

ظلال دُمية

***

شعورُ التجاهل قاتلٌ عندما تشعر به مِمَّن حولك وكأنك كَمٌّ مُهمَلٌ لا فائدة له.. يرسل لك رسالة واحدة مفادها: «ما فائدتك بتلك الحياة؟»

فلَمْ يكن على «بيان» سوى أن تجعل لها دورًا في تلك الحياة لم يكن يخطر لها على بالٍ.. ولا على أيٍّ مِمَّن حولها.. دور خلقَهُ لها الظِّلُّ الذي تراه من العدم فشَكَّل مصيرُها..!

* * *

4

(عودة إلى الوراء)

سنُخبِر الوجع ذاتَ يومٍ أننا تركناه يقتل أجمل ما فينا في هدوءٍ، نحن مجرمون باستستلامنا له.

- منَّك للّه..

إنت السبب في كل حاجة..

ضيَّعتنا.. ضعيت كل حاجة..

إنتَ ماتستحقش الوردة اللي كانت هتموت بإهمالك.

قالت «نبيلة» تلك العبارات التي كان يتخللها صراخٌ لا نهاية له.. تركت استستلامها جانبًا وانزلق منها غضبُها ككرة ثلج خرجت من مكمنها لتنهار الثلوج من عليها فتصبح ككرة قشٍّ مرت بحريقٍ فأحرَقَ كُلَّ شيءٍ أمامه.. صبَّت جَم غضبها على «جلال» الذي أهمل ابنته التي مرضت ولم يصطحبها للطبيب فمِن وِجهة نظره أنها لا تحتاج إلى طبيبٍ «دور سخونية» هكذا

قال.. فترك المسكينة تتلوى من ارتفاع حرارتها وتشنجت أطرافها بعدما أخذت دواءً وصفه لها طبيبٌ مقيم في مشفى ذهبت إليه في منتصف الليل عندما أبى أن يستجيب أبوها لصراخا المتواصل «خدي بنتك واخرجي برا عاوز أنام» ، لم تفلح الكمادات الباردة في أن تخفض حرارة المسكينة.. يومان مدة العلاج الذي أعطته لها «نبيلة» بيدها كانا كفيلين بأن يقضيا تمامًا على عصب سمع الصغيرة فأصبحت صماءَ جرَّاء إهمال طبيبٍ وقَبل منه.. أب.

أصابَها الهلع عندما سمعت أن ابنتها ستصبح صماء للأبد.. مع كلمات الطبيب أن «إحمدي ربنا أنها جت على قد كده.. الحمى الشوكية خطيرة».. فردَّدت في قرارة نفسها أن الحمد للّٰه، ولكن لم ابنتي لهجت بها أنفاسها حتى خرجت من بين شفتيها تناجي اللّٰه:

- ليه بنتي! هيَّ عملت إيه بس يارب علشان يحصلّها كدهَ

ثم عادت فاستغفرت فنطقت بكل ما مضى لجلال الذي لم يعرها اهتمامًا سوى أنه قال:

- لأنك مهملة.. إدِتيها الدوا ده بإيديكِ.. انتي السبب اتحملي بقى مسئولية إهمالك.

أصابتها الصدمة في مقتل؛ ففغرت فاها وضمَّت حاجبيها بعدما كانا ملء جبهتها في غضب:

- أنا مش عارفة إيه الذنب اللي أنا عملته علشان ربنا يبتليني بزوج زيك، هي دي آخرتها بتقولّي إن اللي حصل ذنبي أنا.. لا ده ذنبك إنتَ.

بعدما كان يهم بمغادرتها تاركًا إياها تندب حظها، التفت لها واقترب منها كثعبانٍ سينقضُّ على فأرٍ يحاول الفكاك من بين براثنه المرتقبة قائلًا:

- عاوزة تعرفي ذنبك؟ ذنبك إنك عجبتِ أمي في يوم من الأيام ومش عارف ليه عجبتيها بالطريقة دي علشان تقولّي عليكِ وأتجوزك، وعلشان أمي بس اتجوزتك، أما انتي فماكُنتيش فارقة معايا ولا عاوزك



أصلاً.. عارفة.. أنا حتى مش شايفك، وحتى عيالك دول مش عاوزهم.. مش عاوز حد خالص.. انتي فاهمة؟

تجهمت ملامحها وسقطت من عينيها دموعٌ حفرت في قلبها وديانًا من الألم.. أيقنت أنها ستعيش معها طويلًا.. نظرت إلى كفيها وجدت أصابعها تحرك خاتمَ زواجها جيئةً وذهابًا تتحسسه وكأنه بات يخنقها.. ثم همست في ضعف بعد أن ولّاها ظهره ليغادر الغرفة، استوقفته قائلة:

- طلقني يا جلال.. أنا تعبت.

لم يعرها اهتمامًا فأردفت قائلة:

- أنا عارفة إنك لسه الطفل اللي لسه ما اتفطمش من أمه.. لكن أنا حبيتك راجل مش طفل، كنت مستنياه يكبر ويشوفني أنا، مش أمه اللي ماتت.. كنت مستنية تحبني، بس إنت ماعملتش حاجة ولا حسيت بيَّ،

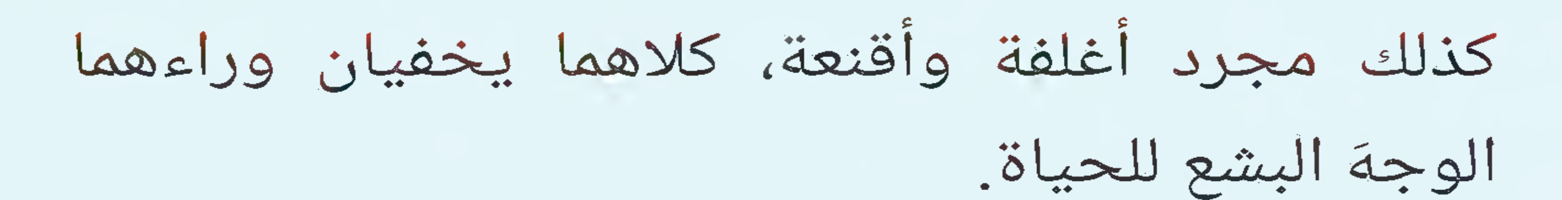


مانفِّذتش بس غير وصية أمك فلا إنت بقيت سعيد ولا أنا، طلَّقني بقى وسِبني بالمعروف.

استند برأسه على يده التي وضعها على الباب ثم التفت إليها في سكونٍ قائلًا:

- ما أقدرش.. دي وصية أمي.

ثم تركها.. تركها ولم يتركها؛ عاشا غريبينِ يغلِّفهما الصمتُ مثلما حُبِسَت بداخله «بيان».. كان أيضًا محبسًا لهما جميعًا.. ماعدا عامر.. الذي استيقظ على كلماتٍ اخترقت أذنيه لم يعِ منها شيئًا سوى أن هناك مشكلةً ما؛ فغادر فراشه ليتجه إلى أمه ويختبئ في أحضانها.. فضمت ذراعيها عليه وتركت دموعها تنساب في هدوءٍ.. مستسلمةً لقدرٍ سقط حكمه عليها ولا تستطيع ردَّه ولا تغييره.. ربما كانت على صواب أن القضاء لا يمكن تغييره، ولكن هل كان الاستسلام حقيقةً أم وهمًا، كانت تتشبث به لاستكمال الحياة بشكلها الطبيعي.. لا يزال الغلاف يبهر الجميع، أما بداخله فهناك أهوالٌ لا يتحملها أحدٌ.. الجميع أيضًا



كذلك مجرد أغلفة وأقنعة، كلاهما يخفيان وراءهما الوجهَ البشع للحياة.

* * *

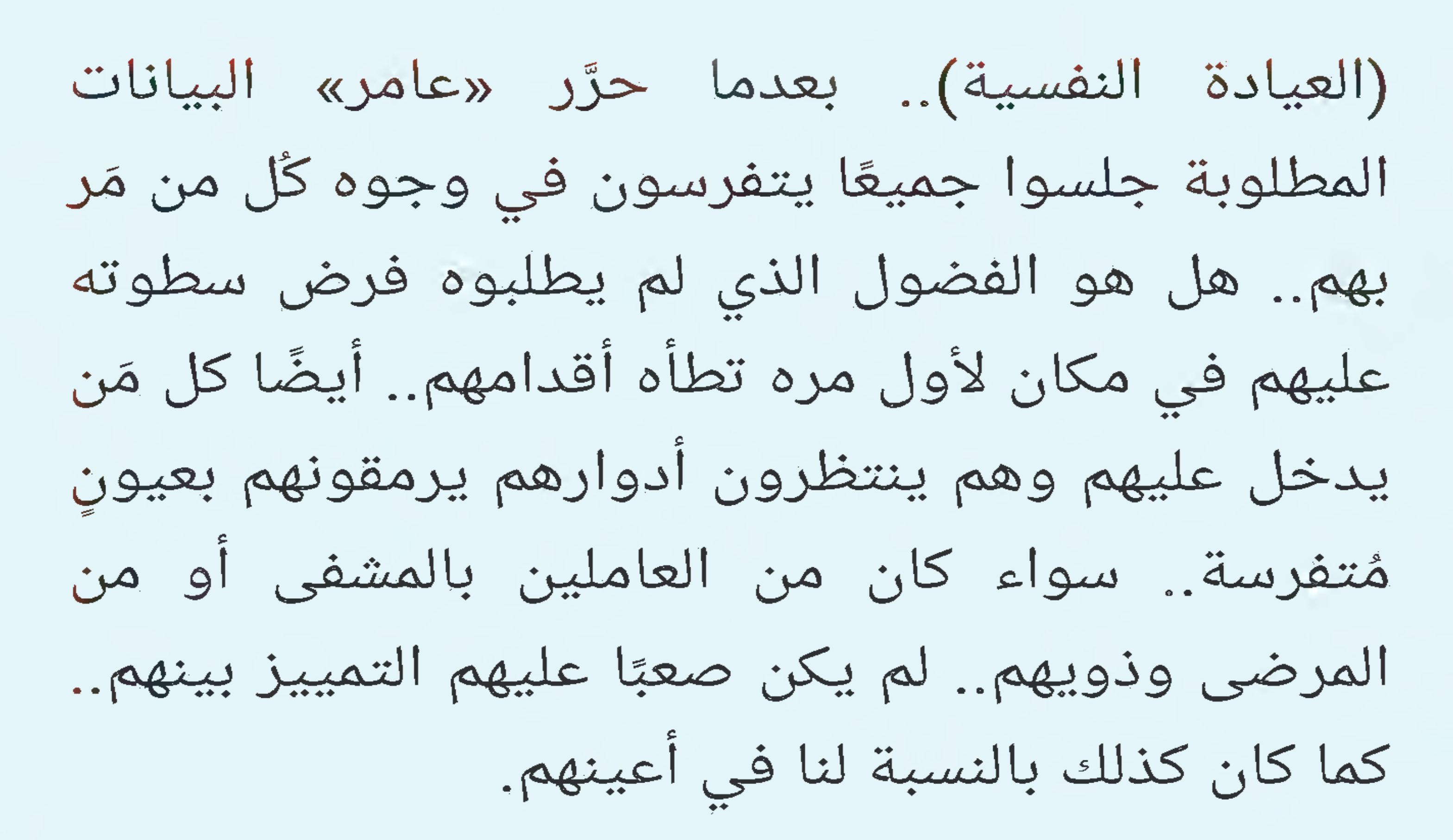
5

(في العيادة النفسية)

- تُرى ما هو الجنون؟

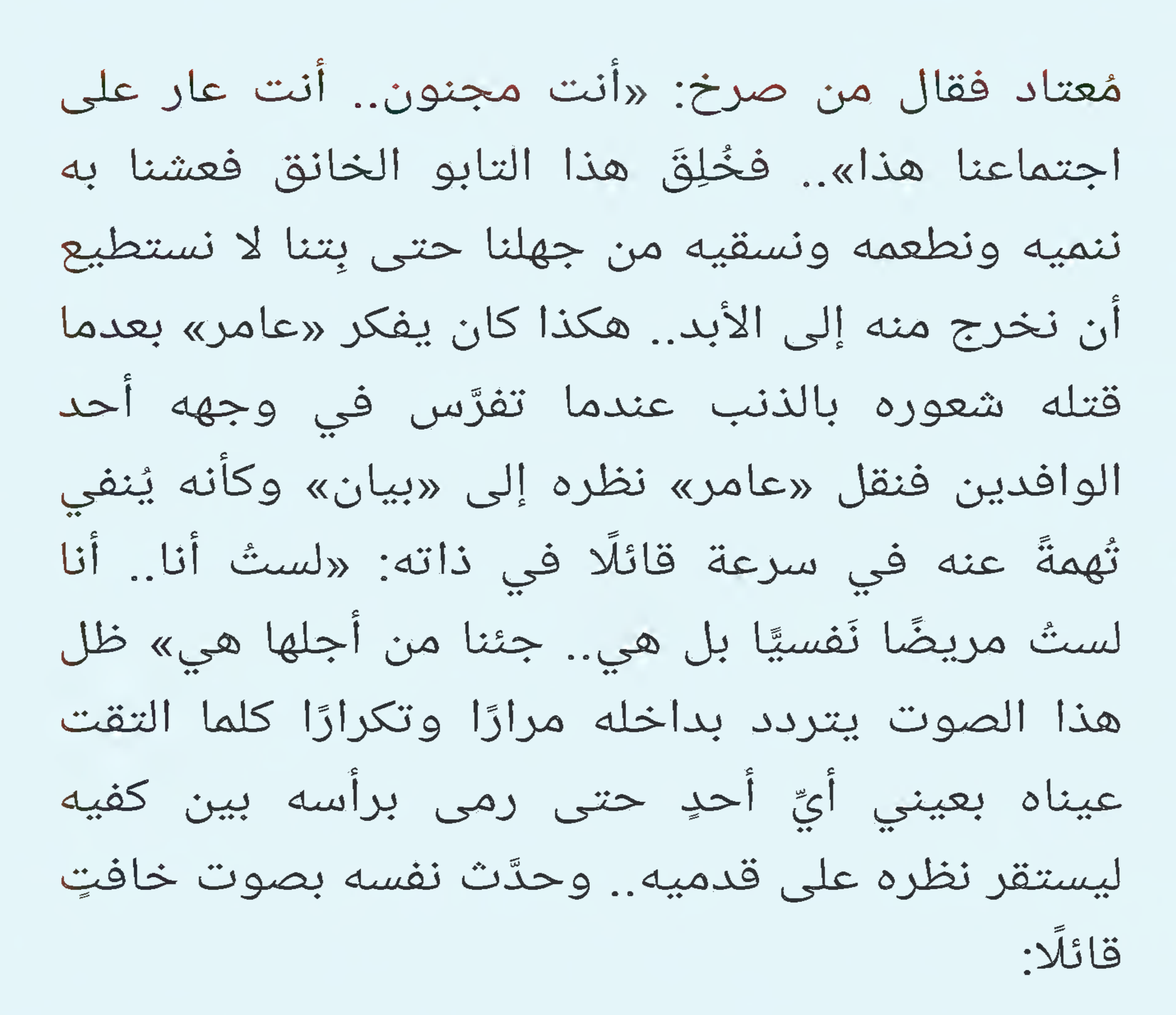
- هو أن تُسجَن داخل عقلك ولا تستطيع الفكاك منه.. الجنون هو سَجنٌ للعقل؟

بعدما هبَّ «عامر» من مكانه وعلى إثره «أمل» وجم الجميع مثل «بيان» التي كانت في عالمها لا تنتظر من أحد سؤالاً ولا البقية، سار الاثنان يتظاهران بالانشغال في اكتشاف المكان الذي كان تملأه الأشجار العالية ولا تنطفئ عنه الحياة أو هكذا خُيِّل لهم من الساحة الخضراء الكبيرة التي كانت أمام المشفى.. انتبه «عامر» لما يرى خلفَ السياج الذي أحاط بالحديقة الوارفة أشجارُها وجد أناسًا تائهين يجلس معهم ذويهم وبعض الممرضين الذين يتنقلون برتابة غير مبالين بالعشب الأخضر تحت أقدامهم، تجاوز الجميع الحديقة واجتازوا سورَ المشفى متجهين إلى وِجهتهم



(العيادة النفسية).. بعدما حرَّر «عامر» البيانات المطلوبة جلسوا جميعًا يتفرسون في وجوه كُل من مَر بهم.. هل هو الفضول الذي لم يطلبوه فرض سطوته عليهم في مكان لأول مره تطأه أقدامهم.. أيضًا كل مَن يدخل عليهم وهم ينتظرون أدوارهم يرمقونهم بعيونٍ مُتفرسة.. سواء كان من العاملين بالمشفى أو من المرضى وذويهم.. لم يكن صعبًا عليهم التمييز بينهم.. كما كان كذلك بالنسبة لنا في أعينهم.

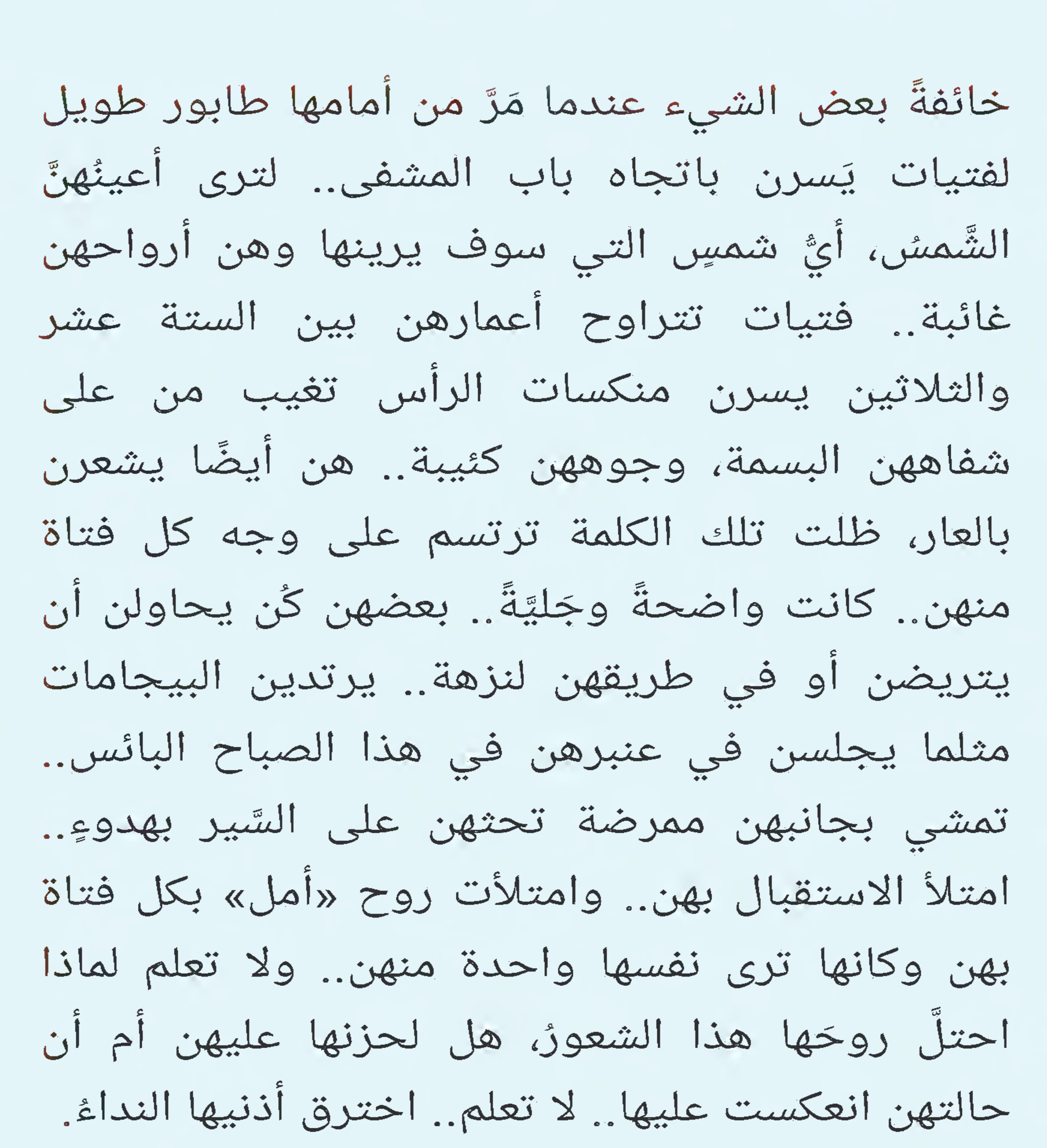
في هذا المكان فقط خجلَ «عامر» من مرض «بيان».. لام نفسه كثيرًا بداخله على هذا الشعور الذي انتابه.. (هل يَصح أن أخجل من المرض).. لم يعلِّمونا في كُتب المدرسة أن المرض النفسي ليس بعَارٍ.. ولم يخبرونا أيضًا أنه وصمة.. تُرى من أين جاء العار الذي نحمله بداخلنا تجاه هذا المرض.. لا يعلم.. سوى أن تلك الفكرة التي يشعر تجاهها بالذنب لم تكن إلا وليدة أُناس اجتمعوا سويًّا ليفكروا في بعض الأوصاف ليجدوا لها قالبًا معيَّنًا فصرخ أحدهم بعدما صرَّح أحد المجتمعين بأفكارٍ غير مألوفة وطرحها بشكلٍ غير



مُعتاد فقال من صرخ: «أنت مجنون.. أنت عار على اجتماعنا هذا».. فخُلِقَ هذا التابو الخانق فعشنا به ننميه ونطعمه ونسقيه من جهلنا حتى بِتنا لا نستطيع أن نخرج منه إلى الأبد.. هكذا كان يفكر «عامر» بعدما قتله شعوره بالذنب عندما تفرَّس في وجهه أحد الوافدين فنقل «عامر» نظره إلى «بيان» وكأنه يُنفي تُهمةً عنه في سرعة قائلًا في ذاته: «لستُ أنا.. أنا لستُ مريضًا نَفسيًا بل هي.. جئنا من أجلها هي» ظل هذا الصوت يتردد بداخله مرارًا وتكرارًا كلما التقت عيناه بعيني أيِّ أحدٍ حتى رمى برأسه بين كفيه ليستقر نظره على قدميه.. وحدَّث نفسه بصوت خافتٍ قائلًا:

«مين إداني الحق إني أحكم عليها وأتكسف منها، المفروض أتكسف من نفسي.. أنا اللي أكسِف مش هيَّ».

ظلَّ هكذا حتى «أمل» لم تتدخل في أن تخرجه مما هو فيه بل ظلت تتابع «بيان» بعينيها تارة، وتارة أخرى تُعلِّق عينيها على المارين.. لم تنكر أنها كانت



خائفةً بعض الشيء عندما مَرَّ من أمامها طابور طويل لفتيات يَسرن باتجاه باب المشفى.. لترى أعينُهنَّ الشَّمسُ، أيُّ شمسٍ التي سوف يرينها وهن أرواحهن غائبة.. فتيات تتراوح أعمارهن بين الستة عشر والثلاثين يسرن منكسات الرأس تغيب من على شفاههن البسمة، وجوههن كئيبة.. هن أيضًا يشعرن بالعار، ظلت تلك الكلمة ترتسم على وجه كل فتاة منهن.. كانت واضحةً وجَليَّةً.. بعضهن كُن يحاولن أن يتريضن أو في طريقهن لنزهة.. يرتدين البيجامات مثلما يجلسن في عنبرهن في هذا الصباح البائس.. تمشي بجانبهن ممرضة تحثهن على السَّير بهدوءٍ.. امتلأ الاستقبال بهن.. وامتلأت روح «أمل» بكل فتاة بهن وكانها ترى نفسها واحدة منهن.. ولا تعلم لماذا احتلَّ روحَها هذا الشعورُ، هل لحزنها عليهن أم أن حالتهن انعكست عليها.. لا تعلم.. اخترق أذنيها النداءُ.

- «بيان «جلال» الصواف»..

انتبه «عامر» للنداء فأخذ بيد «بيان» واتجهوا إلى الغرفة المخصصة للأخصائي النفسي.. أشار إلى «أمل»

أن تمكث مكانها فرضخت وعادت تتأمل آخر فتاة كانت تخرج من الباب الزجاجي الكبير وكأنها هي، وتساءلت بداخلها قائلة:

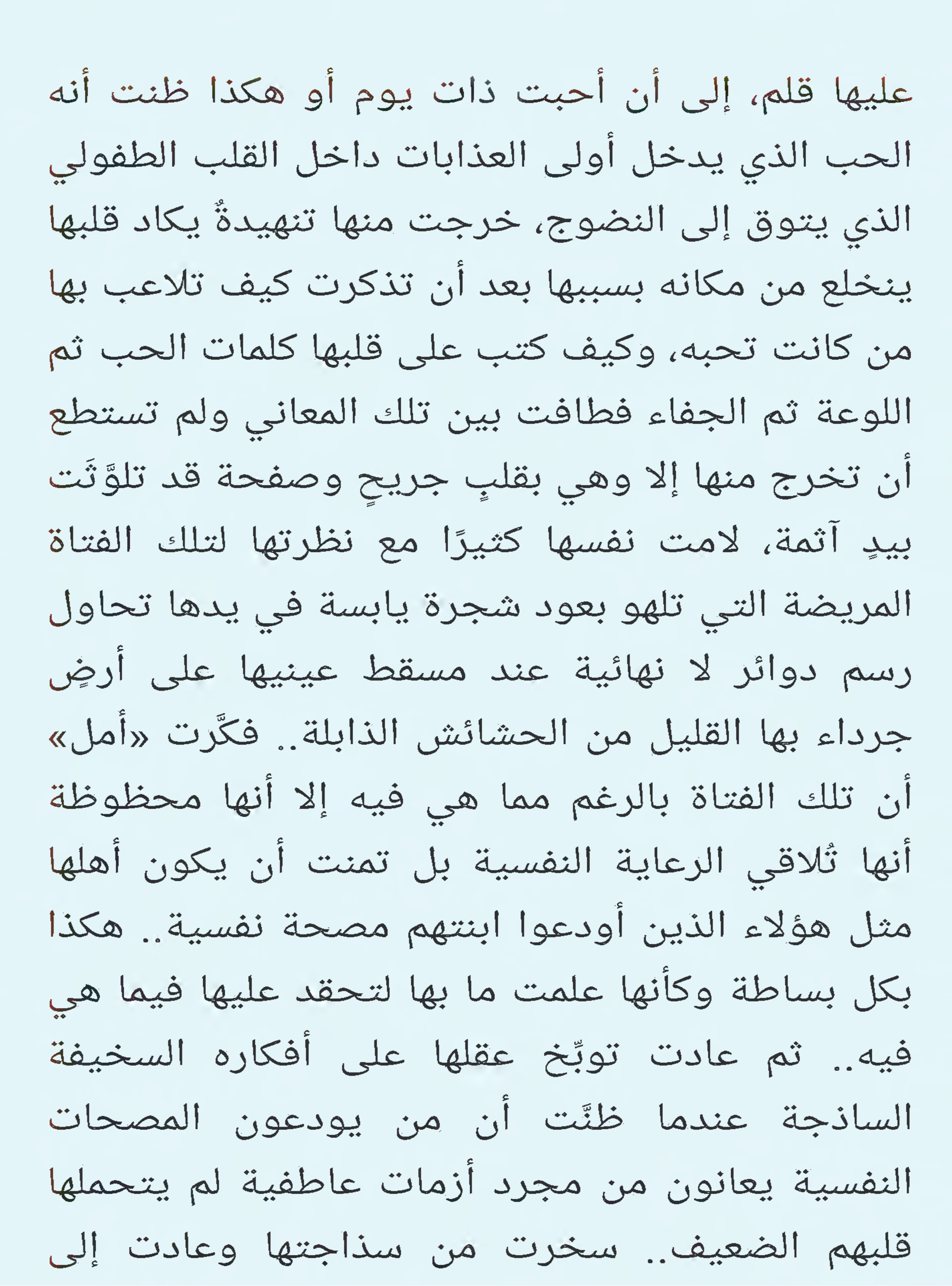
- يا ترى حكايتك إيه؟

***

مرَّ الوقت على «أمل» طويلًا مُمِلًا حتى ظنت أنه لا نهاية لتلك الجلسة التي لا تعلم نهايتها متى فسألت مسئول الاستقبال قائلة:

- هي الجلسة هتطوِّل؟

مطَّ شفتيه في تثاقل قائلاً إن مدة الجلسة يحددها الأخصائي وأنه ريثما ينتهي ستعرض على الطبيب النفسي.. ثم نظر في الأوراق التي أمامه، لم تعد إلى جلستها الأولى فتحت الباب وخرجت تشتم الهواء فعادت من جديد لتلك الفتاة التي تبدو أنها لم تتجاوز السادسة عشر من عمرها.. فتذكَّرت نفسها في هذه السن كيف كان النقاء يملأها كصفحة بيضاء لم يُنقَش



عليها قلم، إلى أن أحبت ذات يوم أو هكذا ظنت أنه الحب الذي يدخل أولى العذابات داخل القلب الطفولي الذي يتوق إلى النضوج، خرجت منها تنهيدةٌ يكاد قلبها ينخلع من مكانه بسببها بعد أن تذكرت كيف تلاعب بها من كانت تحبه، وكيف كتب على قلبها كلمات الحب ثم اللوعة ثم الجفاء فطافت بين تلك المعاني ولم تستطع أن تخرج منها إلا وهي بقلبٍ جريحٍ وصفحة قد تلوَّثَت بيدٍ آثمة، لامت نفسها كثيرًا مع نظرتها لتلك الفتاة المريضة التي تلهو بعود شجرة يابسة في يدها تحاول رسم دوائر لا نهائية عند مسقط عينيها على أرضٍ جرداء بها القليل من الحشائش الذابلة.. فكَّرت «أمل» أن تلك الفتاة بالرغم مما هي فيه إلا أنها محظوظة أنها تُلاقي الرعاية النفسية بل تمنت أن يكون أهلها مثل هؤلاء الذين أودعوا ابنتهم مصحة نفسية.. هكذا بكل بساطة وكأنها علمت ما بها لتحقد عليها فيما هي فيه.. ثم عادت توبِّخ عقلها على أفكاره السخيفة الساذجة عندما ظنَّت أن مِن يودعون المصحات النفسية يعانون من مجرد أزمات عاطفية لم يتحملها قلبهم الضعيف.. سخرت من سذاجتها وعادت إلى

عينيها نظرة التعاطف لفتاتها المريضة دون حتى أن تعلم مَن هي أو ممّا تعاني.. فقط تعاطفت معها لوحدتها التي تعاني هي أيضًا منها.

ظهرت على شفتيها ابتسامة جانبية هازئة، ثم حدَّثَت نفسها قائلة: «لا يزل عقلي ساذجًا ينظر للأمور بسطحية.. لا أزال لا أعلم شيئًا سوى الذي أراه».

عادت أدراجها وعقلها يعمل كطاحونة لا تتوقف عن إخراج بذور الأفكار لتنمو وتتكاثر وكأنها طحين قد اختمر؛ فلم تعد تتحمل ما برأسها.. جلست مكانها وأخرجت هاتفها لتخرج من تلك الحالة فإذا بعامر قد خرج وعلى إثره «بيان» التي قد فارقته في طريق مختلف مع ممرضة تسير بجانبها في تآخٍ شديدٍ لتغيب عن بصرهم.. قامت «أمل» من مكانها لتسأل «عامر» عما حدث، ولكنها وجدته يتحدث مع الطبيب ومسئول الاستقبال وكأنهم في اجتماعٍ ثلاثيٍّ.. اقتربت منهم قليلاً فلم تستمع إلا لجملة واحدة:

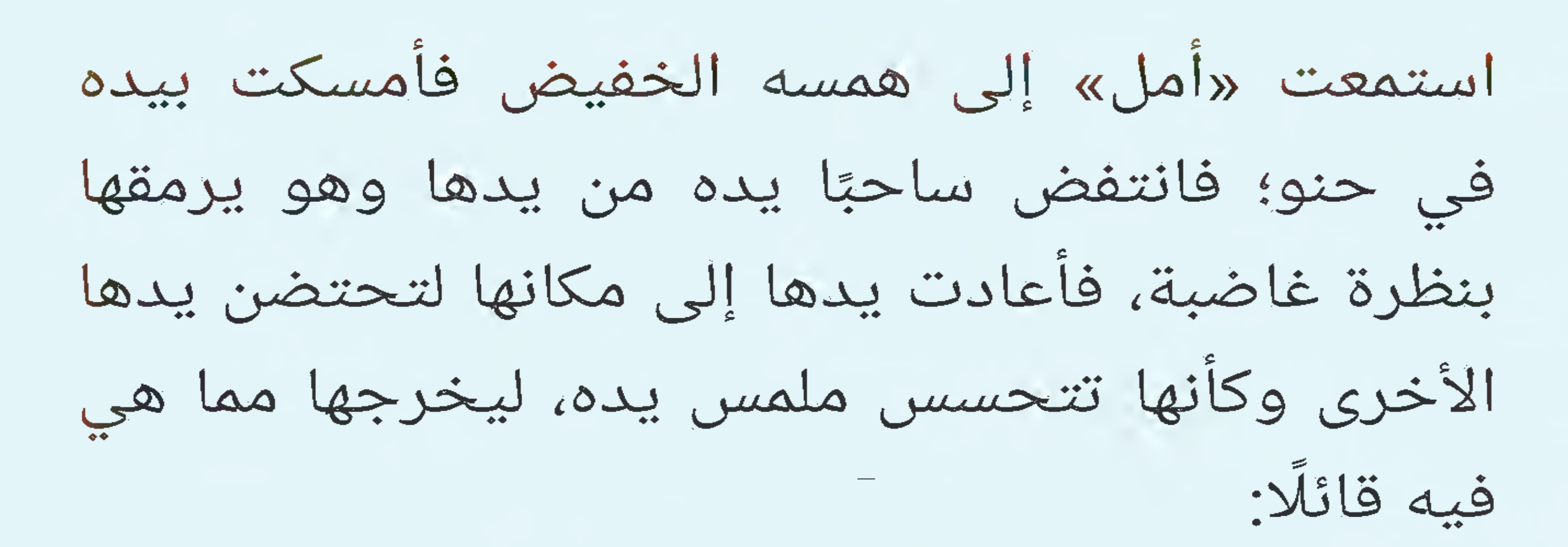
- شهر على الأقل.

6

(أوجاع العودة)

تخرج منَّا الكلمات لا نأبه بها فتستقر في قلوبِ مَن حولنا لترديهم قتلى بدماء خفية لا يشعر بحرارتها سوى من قُتِلَ بها.

كان الليل قد أسدل ستائره السوداء على «عامر» و «أمل» وهما في طريقهما إلى مدينتهما الباسلة، كلاهما في واديه «أمل» كانت تستمع إلى دقات قلب «عامر» وهي تجلس هذه المرة إلى جانبه، أما هو فلم يكن يستمع إلى لهاث أنفاسها وكان كل ما يشغل باله تلك الغيمات التي تجمَّعَت حول عقله لا يعلم متى ستنقشع وتزول.. عدة أسئلة تكاثرت لا إراديًّا في عقله، كيف سيدبِّر إقامة «بيان» في المشفى النفسي؟، بل كيف وصلت حالة «بيان» إلى هذا الحد؟.. أين كان منها؟؟.. بل أين الجميع منها؟.. ثم حدَّث نفسه في خفوتٍ قائلاً: «بل أين كانوا منا؟!»



استمعت «أمل» إلى همسه الخفيض فأمسكت بيده في حنو؛ فانتفض ساحبًا يده من يدها وهو يرمقها بنظرة غاضبة، فأعادت يدها إلى مكانها لتحتضن يدها الأخرى وكأنها تتحسس ملمس يده، ليخرجها مما هي فيه قائلًا:

- انتي جيتِ معانا ليه يا «أمل»؟

فاجأها سؤاله فهربت منها الكلمات وكأنها فئران مذعورة عندما أضيئت المصابيح على حين غرَّة.. فتلعثمت تحاول أن تجذب الكلمات من جديد إلى عقلها ثم أجابت:

- إنت عارف أن «بيان» أختي.. ماينفعش ما أبقاش جنبها في ظروفها دي.

تابع هجومه في تحدٍ واضحٍ وكأنه يقول لها أنتِ كاذبة وأكمل:

- «بيان» مش لوحدها أنا معاها.. جيتِ ليه؟ وإزاي أمك سمحتلك إنك تيجي معانا؟

لم تسعفها الكلمات هذه المرة فذرفت عيناها دمعًا صامتًا بعدما لم تقوَ عيناها حتى على الكلام ونظرت أمامها.. لم يكتفِ «عامر» برؤية دموعها التي تساقطت وتحاول اللحاق بها بأطراف أصابعها أكمل قائلًا:

- لا يا «أمل» انتي ماجيتيش عشان «بيان» انتي ماكنتيش صاحبتها وازاي هتكوني صاحبتها وهي خرسا ومش بتسمع.. مفيش مرة عديتِ علينا إلا عشاني، انتي ليه بتحاولي تحاصريني بالشكل ده؟

لم تحتمل «أمل» هجومه العنيف عليها فأصبح بكاؤها يصدر أزيزًا خافتًا فعاجلها قبل أن يرتفع صوت بكائها:

- أنا مش قصدي أهينك.. أنا بس عاوزك تعرفي إني...

قاطعته بصوت متحشرج من أثر اختناقها بالدمع قائلة بصوت متقطع:

- أنا بحبَّك..


فلم يفكر وعاجلها:

- وأنا ما أنفعش للحب.. ما أعرفش يعني إيه حب، عاوزك تعرفي ده كويس.

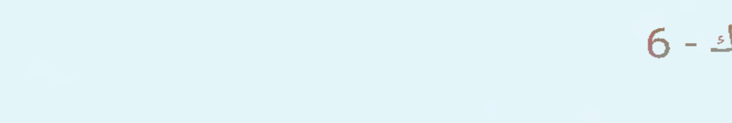
نظرت له بعينين صبغتهما الحُمرة قائلة:

- أنا مش عاوزة أعرف حاجة.. سِبني أحبك حتى لو إنت مش عاوز الحب ده.

نظر أمامه ولم يجبها تركها في أفكارها ودمعها الذي ظل ينساب على وجنتيها في خفوت ولم يعر بكاءها أيَّ اهتمامٍ، وعاد لأفكاره ولكن في اتجاهٍ آخر لم يفكر به يومًا: «لِمَ لا يعرف كيف يحب؟!»..

***

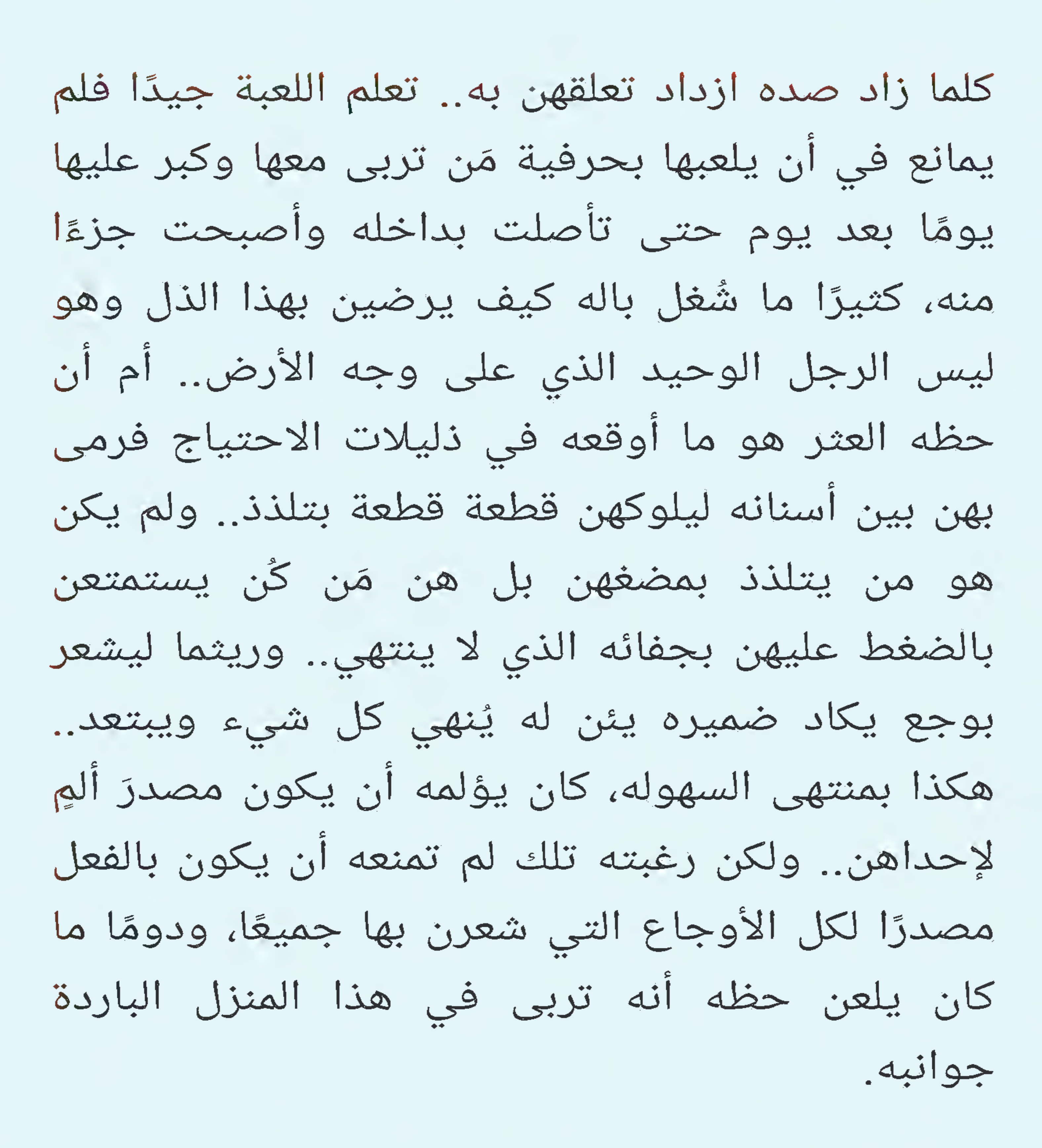
الوجع الذي كان يملأ «عامر» من داخله أكبر من أن يرتمي داخل حب «أمل» له.. لم يتعلم الحب عاش في جو يملأه الجفاء، ليس من أمه لأبيه، ولكن لم يكن يرى أباه يحنو على أمه أو يداعبها أو حتى يتحدث معها همسًا.. ولم تعترض هي أو تطلب الابتعاد عنه سوى



تلك المرة التي يأتيه صوتها ضبابيًا وهي تصرخ بكلمة لم يكن يعلم معناها «طلقني»، ومن بعدها لم يسمعها تحدِّث بها نفسها.. لم تعاتبه يومًا في معاملته الجافة لها.

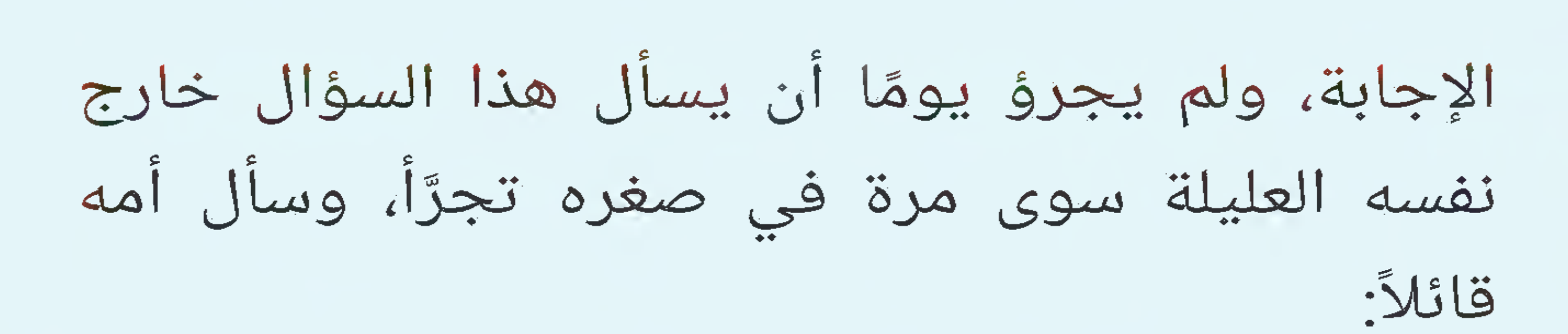
لم ينُكر أنه كان يتوق لقصص الحب الذي يسمع عنها.. اللوعة والسهر والشوق والمواعيد الغرامية واللقاء خِلسةً.. كل هذا كان يُفكر فيه وتمنى أن يعيشه، حاول أن يكوِّن علاقة أو اثنتين ولكنه وجد أنه يُمثل الحب فقط كما رآه في الأفلام والمسلسلات.. هكذا سارت الأمور بداخله، لم يغضب لمشاجرة بينه وبين حبيبته المزعومة.. ريثما يغلق الهاتف يذهب ليلعب ألعاب الفيديو المعتاد عليها مع أصدقائه وكأن شيئًا لم يكن.. ولم يجد من أي من رفيقاته اللاتي كان يرافقهن ممانعة أو غضبًا فبمجرد أن يحادث واحدة فيهن يزول أي شيء وتمطره بكلمات الحب التي لا يعلم عنها شيئًا سوى أنها كلمات.. فقط كلمات لم يشعُر بحلاوتها يومًا.

هل صحيح أن النساء يطربن لصد الرجل لها وتستعر نار الحب بداخلهن أمام هذا الجفاء!!.. هكذا قد كان..



كلما زاد صده ازداد تعلقهن به.. تعلم اللعبة جيدًا فلم يمانع في أن يلعبها بحرفية مَن تربى معها وكبر عليها يومًا بعد يوم حتى تأصلت بداخله وأصبحت جزءًا منه، كثيرًا ما شُغل باله كيف يرضين بهذا الذل وهو ليس الرجل الوحيد الذي على وجه الأرض.. أم أن حظه العثر هو ما أوقعه في ذليلات الاحتياج فرمى بهن بين أسنانه ليلوكهن قطعة قطعة بتلذذ.. ولم يكن هو من يتلذذ بمضغهن بل هن مَن كُن يستمتعن بالضغط عليهن بجفائه الذي لا ينتهي.. وريثما ليشعر بوجع يكاد ضميره يئن له يُنهي كل شيء ويبتعد.. هكذا بمنتهى السهوله، كان يؤلمه أن يكون مصدرَ ألمٍ لإحداهن.. ولكن رغبته تلك لم تمنعه أن يكون بالفعل مصدرًا لكل الأوجاع التي شعرن بها جميعًا، ودومًا ما كان يلعن حظه أنه تربى في هذا المنزل الباردة جوانبه.

كرهَ أباه كثيرًا كما كان يكره ضعف أمه أيضًا وكره معه ضعف جميع النساء وكان يتعجب تُرى ما الذي جعل أباه هكذا لا يشعر ولا يبالي بأحدٍ!.. ولكنه لم يجد



الإجابة، ولم يجرؤ يومًا أن يسأل هذا السؤال خارج نفسه العليلة سوى مرة في صغره تجرًّأ، وسأل أمه قائلاً:

- هو بابا بيحبك؟

لم ينسَ عينيها وهما محتقنتان بالدمع ولا تنهيدتها التي كانت تحمل بداخلها الكثير من الوجع لم يدرك أن إجابتها التي أجابتها كانت تراوغه بها فردَّت على تساؤله بما يتناسب مع براءته قائلة:

- إنت بتسأل السؤال ده ليه.. آه طبعًا أكيد بيحبني.

حاولت أن تداري دمعها، ولكن دومًا ما نظن أن الأطفال لا يدركون ما نشعر به بل يدركون ولكن يُخزِّن بداخلهم ليوم يستدعونه فيه فيفهمون كل شيء.. لم يراوغها واستكمل حديثه بين طيات مراوغتها قائلاً:

- أصله مش بيقعد معانا على الغدا أو العشا دايمًا بتحضري له الأكل لوحده وانتي كمان دايمًا بتنامي معانا في أوضتنا.. ومش بشوفه يكلمك في حاجات

البيت، عارفة يا ماما لما بتتخانقوا أنا بخاف من صوتكم، إزاي بيحبك ويعمل كل ده.

أجابته تلك المرة في حزمٍ:

- أبوك بيتعب في الشغل.. فواجبي إني أشيل شوية من عليَّ، قولي بقى إنت شايف الحب إزاي؟

أجابها في سرعة الأطفال قائلاً ليخبرها بما يدور في عقله الصغير قائلاً:

- مش بشوفكم زي المسلسلات والأفلام.. مش هو ده الحب، أنا شايف الحب كده.

ضحكت هي حينها من الوجع واحتضنته قائلة:

- مش كل حاجة بتشوفها بتبقى حقيقة.. ده تمثيل لكن الحقيقة هيَّ اللي احنا عايشينها وبتشوفها قُدَّامك.

وهكذا تعلم ان الجفاء هو الواقع وأن إذا أردت أن تعيش شيئًا تتمناه عليك أن تناله بالتمثيل، تعجب



أيضًا من دفاعها عنه واختلاقها الاكاذيب التي أدرك فيما بعد انها كذلك.

ونحن أطفال لا نعلم عن الكذب سوى بقطعة حلوى غير مسموح بتناولها قِبل الطعام أو في قليل من الوقت نلعب فيه.. اما ذاك الكذب الذي كذبته امه لم يدركه سوى عندما وجد نفسه يكتفي بمشاهدة الحب في الأفلام وتمثيله أيضًا حتى ملَّ من كل شيء وانغمس في عمله فقط فأصبح كآلة لا تشعر ولا تبالي.. تعمل فقط.

ليتهم يعلمون كيف أثرت تقاسيم وجههم العابسة في بذورهم التي بذروها في أرحامٍ لا تعلم سوى الحب والاحتضان فتلفظ نبتات تخرج للحياة بفطرتها فتُلوَّث لتُصبح عقولاً مشوهة، الجميع يحملون على أكتافهم رؤوسًا تحمل التشوه داخل طياتها أصحاء كانوا أم مرضى.. يختلف الناس في درجة تشوُّههم.. ولكن الجميع مسوخ يحملون المرض ولا يشعرون به ولا يراه مَن حولهم.. مثلما حدثَ مع «بيان».

لم يشعر «عامر» بالوقت في الحافلة التي تقله إلى مدينته إلا عندما اجتازت بوابة المدينة مكتوب عليها «بورسعيد ترحّب بكم»، فتنفَّس الصعداء قليلاً من الوقت ولم ينسَ أنه سوف يعاود الخروج من تلك البوابة من جديد في الصباح.

* * *

7

(أخطاء لا يمكن استدراكها)

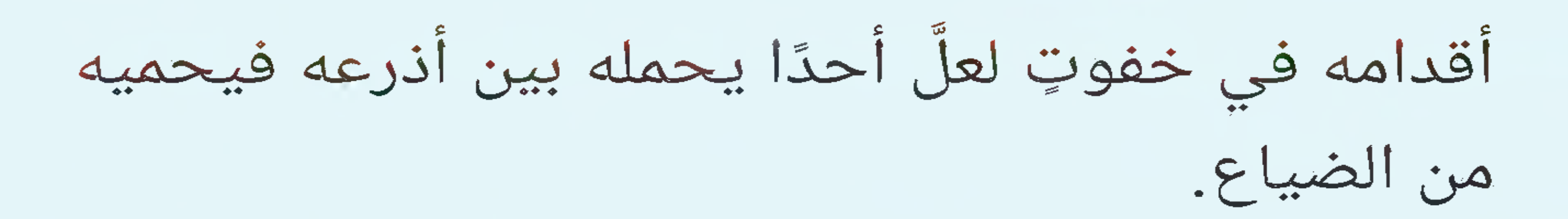
انتبه، الإشارة حمراء. ومع ذلك يستمر في السير وكأنه يسير نحو الموت بقدميه.. هكذا الكثير منا.

هل بتجاهُلِنا إشارات القدر نجعله يقسو علينا أكثر مما كان مُقدَّرًا لنا.. هل كان القدر يُعمينا عن كل شيء لكي يزيد من ضرباته المتتالية بلا هوادة أو رحمة.. لا أحد يعلم، كذلك لا أحد يستطيع أن يعلم ما الحكمة مما يحدث لنا تحت سماء القدر الذي يُحكِم قبضته علينا ولا نعلم كيف نخرج من تحت سمائه إلا بالكُفر، هناك من يرضى عنه القدر ويكشف عن حكمته له من وراء كل الأوجاع التي كُتِبَت عليه.. وهناك من يظل حبيس المجهول إلى اللحد.

تُرى هل معرفة الحكمة من وراء المُقدَّرات ترتبط بالإيمان.. هكذا كانت تعتقد نبيلة، دؤوبة هي في تقربها لله لعله يُعلمها ما هي حكمته في كل ما حدثَ

ويحدث.. لعلّها يومًا تعلم ما الهدف وراء فقدان «بيان» لسمعها أو حتى غرابة أطوارها التي لم تدركها يومًا ظنًا منها أن ما هي فيه رد فعل طبيعي لعدم سماعها ما يدور حولها.. وحدتها التي فرضها القدر عليها سجنها بداخل صَومعة الهدوء المميت التي تعيش بها وفيها، كل ذلك كان تفسيرًا منطقيًّا من وجهة نظر الأم البسيطة التي تصارع لتربي أبناءها وحدها برغم وجود أبيهم معهم، ولكنه كان كالحاضر الغائب لا كان هو يعي ما تقوله ابنته أو حتى يُلقي له بالًا ولا هي كانت تستطيع أن تستوعب كل هذا وحدها حتى وإن كانت تحمل بين أضلعها قلبَ أمٍّ.

حاولت الصغيرة أن تلفت نظر أمها لما تراه، ولكن كل ما كانت تقوله كان بالنسبة لنبيلة مجرد خيال أطفال ليس أكثر.. أثار هذيان «آدم» وهو نائم ذكريات الجدة عن ابنتها وما كان لشبح الذكرى أن يزول سوى بصوت باب المنزل وهو يفتح وسلسلة مفاتيح «عامر» وهي في يده.. فلم يُصدِر صوتًا، دخل كقطٍّ تائهٍ يسحب



أقدامه في خفوتٍ لعلَّ أحدًا يحمله بين أذرعه فيحميه من الضياع.

رمى بجسده على أقرب أريكة أمامه وما إن أغمض عينيه حتى وجدَ يدًا تربت على كتفه.. كانت يد أمه، يدها كانت تحمل الحنان، أما عيناها فكانتا تقطران ذعرًا، عاجلته سائلة:

- هي «بيان» فين؟.. جاي لوحدك ليه؟ حصل حاجة لأختك؟.. اتكلم مش بترد عليَّ ليه؟

لم يكن يعلم ماذا سيقول لها، لم يُفكر في أي إجابة على الرغم من أنه يعلم أنها سوف تمطره بالعديد من الأسئلة التي لا طاقة له بها؛ فأمسك بيدها التي كانت لا تزال مرتكزة على كتفه وكأنها هي من تستند عليه وليس هو من يحتاج إلى الاستناد على أحد حتى لو كانت يد أمه المسنة فأجابها قائلاً:

- «بيان» في المستشفى النفسية يا أمي.. أنا بكرة مسافر لها، يا ريت تحضِّريلها شنطة فيها هدوم تكفيها

لمدة شهر.

ملأت الدهشة وجهها وهو الذي قد أجزم بكل شيء عليها القيام به فانفجرت غاضبة والكلمات تنطلق من فمها كسيل لا يقف أمامهِ سوى سد متهدم واهٍ.

- كده سِبت أختك في المستشفى.. بالسهولة دي.. إنت مش وعدتني أنك هتخلي بالك منها، ده اللي سافرت عشانه، قولتلي قبل ما تسافر إنها هتكشف مش أكتر من كده، قولي دلوقتِ إيه اللي بيحصل، إزاي تسيبها وتيجي بالسهولة دي.. دي آخرتها يا «عامر» تسيب أختك في مستشفى المجانين.. طيب الناس هتقول علينا إيه.. رُدّ عليَّ، إنت مارعتش الأمانة يا «عامر» خيَّبت ظني فيك.

ظلَّ «عامر» يستمع إلى هدير صراخها واجمًا، من السهل أن نتهم غيرنا بالتقصير غير مبالين بما عانوا.. من السهل أن نجرحهم بكلمة لا تُنسَى هكذا فعل «عامر» أمام اتهامات أُمه فصفعها بكلمة أسكتت هدير غضبها قائلًا:

- جاية دلوقتِ تحاسبيني على الحاجة الوحيدة اللي عملتها صح في حالتها دي.. طيب كنتِ حاسبي نفسك الأول.. كنتِ فين أما بنتك وصلت للمرحلة دي فهميني؟

وتركها بعد أن دارت رأسها بما قاله وكأنه بالفعل قد صفعها فارتمت على كرسيها تُفكر.. كيف لي أن أعرف ما تعاني منه.. فنادت عليه بصوت مبحوح واهن قائلة:

- إستنى هنا.. فهمني أنا كنت هعرف ازاي؟

لم يجبها على تساؤلها فقط وصلها صوته قائلاً:

- سِبيني دلوقتِ ورايا سفر الصبح.. ياريت تحضريلها حاجتها عشان آخدها معايا.

من الصعب أن نحاسب أنفسنا على كل أخطائنا التي فعلناها.. بل الأصعب أن نجلد أنفسنا على أفعالٍ كنا نظنها صوابًا، وفي غفلة منا كانت عين الخطأ، كانت تظن أنها كانت تفعل الصالح لها ولكن الصالح لم يكن

يومًا من نصيبها.. ربما كانت تحلم ببدء حياة جديدة من خلال ابنتها، ولكن الحياة الجديدة لم تُكتَب لها أو لبيان، كلتاهما الزواج أودى بآخِر «أمل» لهما في الحياة.

***

تربينا على تلك الحكمة التي سمعناها دومًا «من شبَّ على شيء شابَ عليه» هكذا كان «جلال» في غمرة تلك الأحداث التي كان يُعج بها اليوم أو حتى في الأيام الماضية.. دوره كان أقل من الشرفي وكأنه كان يشاهد من بعيدٍ شيئًا لا يخصه مثلما كان دومًا يفعل.

طيلة اليوم كان يجلس على المقهى لا يعلم شيئًا عما يدور، فقط يشرب الشاي والقهوة ويشاهد المباريات ويتفاعل معها كأنه فردٌ من المستطيل الأخضر.. ليته يفعل هذا بين الأربعة جدران التي تضم هؤلاء التائهين بين جنباتهم، ولكنه لم يفعل يومًا، عاد بعد أن قاربَتْ عقاربُ السَّاعة على قبيل منتصف الليل وهو مُتعبٌ من اللا شيء الذي كان يفعله فلم يبالِ بنبيلة أو ما

كانت عليه، فتحَ الباب وجدها تسند خدها على راحة يدها وهي تبكي في خفوتٍ.. تجاوزَها وذهبَ إلى غرفته في تثاقُلٍ فزادَ من حنقها عليه فنادت عليه سائلة:

- جلال.. إنت مش هتسأل على بنتك.. مش هتسأل إيه اللي حصل لها؟

التفت بجانب وجهه متحاشيًا النظر إليها قائلاً:

- وهيفيد بإيه أعرف ولّا معرفش.. ما عادش حد صغير.. وعامر كبر ما شاء الله أهو بقى راجل، محدش محتاجلي.

زفرت كتنِّين يتنفس نارًا ثم ارتفع صوتها قائلة:

- إنت اللي عملت كل ده، إنت اللي اتنازلت عن دورك كأب، فوق لنفسك بقى إنت قرّبت على الستين، ولسه شايف إنك طفل صغير ماعندوش مسئوليات، إنت أب.

أشاح بوجهه عن الوجهة التي كان ينظر فيها وهو موليًا إياها ظهره ونظر أمامه متجهًا إلى غرفته قائلاً:

- خلاص مفيش حاجة تفيد دلوقتي، خلاص مشيت اللي كنت بعمل عشانها كل حاجة، سِبيني في حالي.

ظلت تمطره بكرات اللهب التي تخرج من فيها حتى بعد أن غابَ عن نظرها في غرفته وهي تقول:

- هي مشيت من خمسة وعشرين سنة وانت لسه عايش على طريقتك القديمة، مش عارفة أقول إيه أدعي عليها وهي اللي مايجوزش عليها الا الرحمة! كفاية ظُلم لينا بقى.

ثم أجهشت بالبكاء الذي اختنق به قلبها، كل ما حدث كان يستمع إليه «عامر» وهو يتمزق من داخله، مَن الذي أقرَّ بأنَّ تكرار الألم يُفقِدنا الإحساس به!!.. كل ما سمعه ليس جديدًا عليه بل اعتاد على سماعه منذ كان طفلًا صغيرًا، عندما بدأ يعي ما يُقال.. لم يمنعه ما كان يسمعه ولا يزال يشتهي السند والأمان والحب من

كليهما.. كان يأمل بالحياة الهادئة، كان يتمنى أن يسأله أبوه ماذا فعلت وما ستفعل، يشاوره ويأخذ برأيه.. أما الآن فهو يشعر أنه كالقشة التي تتلقفها الرياح فترمي بها كيف تشاء.

أجبر عينيه على النوم.. فذهب معها وعقله يدور في حلقة لا يعلم ماذا ستكون نهايتها.. ولم يغب عنه نداؤه الخفي الذي تلهج به نفسه:

- أنا مش عاوز أبقى لوحدي.

* * *

8

(الوصايا أيضًا تقتل)

نكبر ونكبر ولا يزال احتياجُنا لسندٍ نستند عليه غير أنفسنا.. فلم يجدينا وجود حائط بجوارنا ولا صديق يسكن بجوارنا.. نحتاج لدماء منا تحتوينا..

هكذا كان جلال.. هذا الصرح الجامد الصامت الذي كان كجرة طين تحسبها جامدة وهي من السهل كسرها فقط إن أمعنت النظر إلى الشقوق التي تكاد ضربة إصبع تأتي عليها وتحطمها.

رسم اللا مبالاة على وجهه ونياط قلبه تكاد تتمزق من الألم.. كان بحاجة إلى احتضانة أمه، إلى اطمئنانٍ يأتيه على هيئة ربتات ضعيفة من يدها التي كسَتْهَا تجاعيدُ الزمن.. أمه التي حقَّق رغبتها في أن يتزوج ويُنجِب وهو الذي لم يكن يومًا يريد ذلك ليس لشيءٍ سوى أنه استكان لصحبتها وهي لم تكن لأحدٍ سواه.. شبَّ وهو وحده معها وهي وحدها من أجله فلم يعبأ

بالزواج فلم يكن يفكر إلا في يوم أن تفارقه.. كيف ستكون الحياة بدونها.. هي أيضًا لم يكن يشغل بالها سوى كيف سيعيش بدونها وهو ابنها المُدلَّل الذي لا يقوى على إحضار كوب ماء ليروي عطشه، ازداد إلحاحُها عليه وظلت تسقط عليه مخاوفها حتى ملأت قلبه بتلك الكلمات:

- أتمنى في يوم أشوف ابن ليك.

- هتعمل إيه من غيري بعد أما أموت.

- أنا نفسي أتطمن عليك قبل ما يجرى لي حاجة.

- إنت أكيد محتاج زوجة تكون دايمًا جنبك.

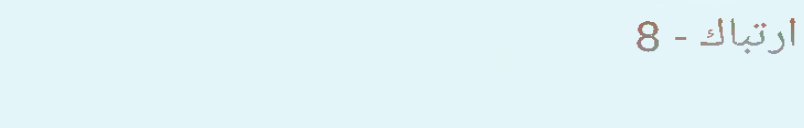
جمل كثيرة كانت تخرج منها وهي متألمة لحاله، وكان يمازحها قائلاً:

- انتي بنتي وصاحبتي وكل حاجة.. اتطمني وماتقلقيش.

لم تكف عن القلق يومًا وهي تشعر بدنوّ الأجل منها وأنه لم يعد هناك وقت لكل تلك الممازحات التي أصبحت تزيدها همًا وقلقًا عليه وهو وحيدها فأصرت يومًا قائلة:

- يا ابني ماتخليناش زي الشجرة اللي اللي فروعها نشفت.. كمّل الشجرة وكبَّرها وهاتلنا زرعة نفرح بيها، إنت بدأت تكبر ومش عاوزاك تبقى لوحدك من غير حد جنبك وابن يسندك.. طيب بس اتجوز علشاني وعلشانك برضو.

رضخ لكلماتها بعد أن أخافه شبح الموت الذي يغلِّف صوتها.. تملَّكَه الخوف من الوحدة وهو الذي لا خالَ له ولا عَمّ، أعطاها الموافقه فدبَّت في قلبها الحياة من جديدٍ وهمَّت تُفكر مَن هي الأصلح له لم تجد سوى «نبيلة».. تلك الفتاة الـ «مقطوعة من شجرة» التي تجلس عند عمتها بجوارهم.. وما كانت تنقطع تلك العمة عن شكواها من ابنة أخيها التي تجلس عندهم، وما إن فاتحَتْهَا أم «جلال» بطلبها يد الفتاة لابنها حتى انفرجت أساريرها وباركت الزيجة قائلة:



- هي زي بنتك وهو ابنك سامحيني أنا مش هقدر على جهازها انتي عارفة الحال عامل ازاي.

لم تبالِ العجوز بجهاز أو فرش كانت تريد أن تزوِّج ابنها على أية حال، ولكي تعاونها وتحمل عنها أعمال البيت وتكون أمًّا لأحفاد من رحمها لكي لا ينقطع نسلُهم.

أخبرت «جلال» بأمر اختيارها لـ «نبيلة» قائلة:

- بنت حلال ومالهاش أهل غير عمِّتها اللي عاوزة تخلص منها ومن همها وأهي تبقى معايا وليك.. ها إيه رأيك؟

لم يبالِ ووافق على رغبة أمه في أن يتزوج.

مسكينة أيضًا «نبيلة» لم تستطع أن تفرح مثل باقي الفتيات اللواتي في سنها.. تزوجت بلا أيِّ متطلبات أو شروط.. على فراش أُعيدَ تجديده في غرفة من اختيار أمه لم تختر فيها قشةً وكيف لها أن تطلب شيئًا.. والضعف كان يملأ جنباتها، حتى أن تختار

زوجها لم يكن لها يد فيه، وعندما أفصحت لعمتها عن مكنونها ردت قائلة:

«وإيه اللي يمنع؟ جالك نصيب ماكنتيش تحلمي بيه، ناس طيبين ومالهمش طلبات غيرك.. اتجوزي بقى وسيبينا».

هكذا خرجت منها الكلمات كالسهام لتسكن خاصرتها فتستقر بداخلها. ولم تجد مفرًّا من أن تستكمل الحياة مع زوجها وأمه كخادمة طيلةَ خمس سنوات وهي تنزف من جنبها دماء الحياة فقط من أجل بيت يأويها ولُقمة تسد جوعها.. لم تعتقد أن الحياة ستسوء بعد أن فارقتهم العجوز لتلقى ربها، ولكن كانت تلك هي الحقيقة التي لا مفرَّ منها.

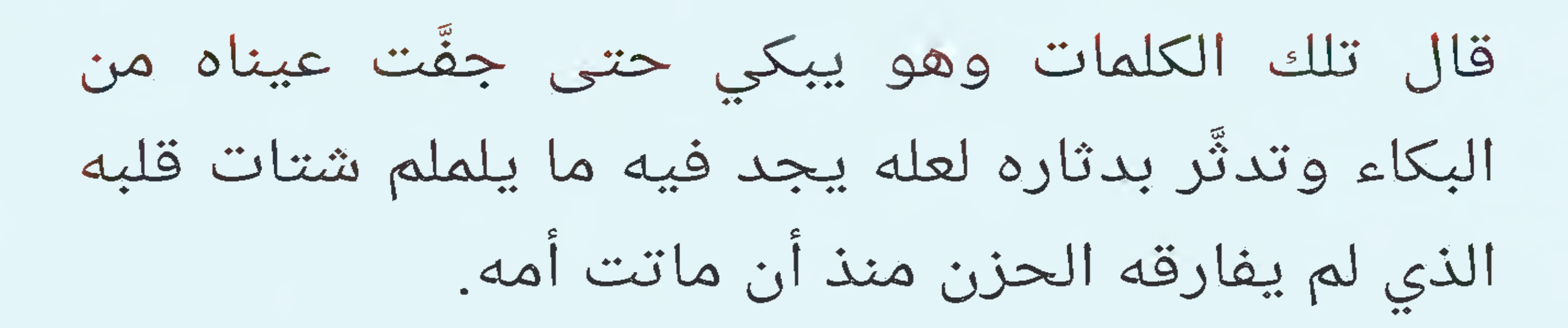
***

كل هذا فكّر فيه «جلال» عندما أغلق على نفسه باب غرفته وهو يتذكر وصية أمه:

«يا ابني مراتك بنت حلال وطيبة.. عاشرها بما يرضي الله وماتذلهاش، عاوز تبرني برني فيها».

همس في ضعفٍ محدثًا نفسه في خفوت.

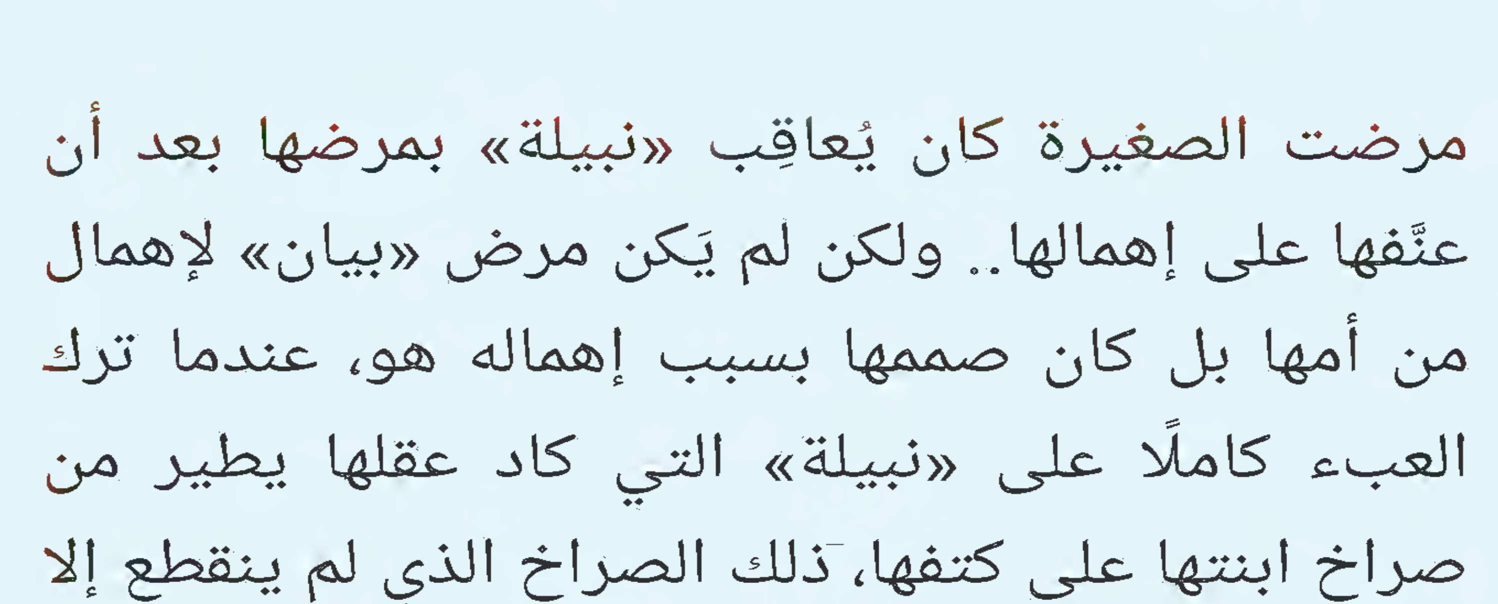
- ماكنتش أدّ الأمانة يا أمي.. ماقدرتش أكمل الحياة من بعدك.. ضيَّعت وصيتك ونبيلة وولادي كمان.. هموت وهُمَّا بيكرهوني.. أيوه أنا اللى ضيعتهم كلهم، أنا محتاجهم بس مش قادر أطلب ده من حد فيهم، علِّمتهم كلهم القسوة.. موتك يا أمي خد الحب من قلبي واتدفن معاكي ومابقاش جوايا إلا الحزن.. نسيت في زحمة الحياة إني أحس بحد غيرك.. ربنا رزقني بواحده شبهك بس ماقدِرتش تملا مكانك أو تعوضني عنك، كنتِ بتديني الحب من غير مقابل.. ماكنتش بحتاج أعبَّرلك عن حبي ليكِ غير بجوازي، لسه بحبك يا أمي لكن ظلمتهم كلهم، أنا بقيت تايه ومشتت.. محتااااجلك ونفسي أموت وأكون معاكِ.. حاسس بغربة من غيرك.



قال تلك الكلمات وهو يبكي حتى جفَّت عيناه من البكاء وتدثَّر بدثاره لعله يجد فيه ما يلملم شتات قلبه الذي لم يفارقه الحزن منذ أن ماتت أمه.

اليُتم شيءٌ قاسٍ وموجعٌ.. «نبيلة» كانت تشعر باليتم كاملًا فقدت أبويها وهي في سنٍّ صغيرة فلم تحظَ بحنانهما أو الأمان في كنفهما يومًا.. لم يُخذلها الله في أن يعوضها بحنان حماتها، ولكن لم تشعر بحنان الأب مع زوجها، أحبته بحُكم العِشرة كما يقولون وحققت مقولة «عيشي» فعاشت بدون أن تعي معنى للحياة في الإحساس بمشاعر الحُب.. بكت حماتها بكاءً مريرًا، ولكن بكت نفسها فيما بعد كما لم تبكِ من قبل.

يقولون إن مَن أنجب بنتًا لا يشعر باليتم أبدًا؛ ففي احتضانتها أم أخرى له.. أما «جلال» عندما أنجب «بيان» لم يهنأ بأمه الجديدة.. ظلَّ يلاعبها ولا يزال الحزن يعتصره كلما عاد من العمل ناسيًا عيون «عامر» التي كان كل نداء له يذكره بصوت أمه وهي تلاعبه وتدلله فأعرض عنه بعض الشيء.. وجعل كل اهتمامه بـ «بيان» التي تحمل ملامح أمه وهدوءها.. عندما



مرضت الصغيرة كان يُعاقِب «نبيلة» بمرضها بعد أن عنَّفها على إهمالها.. ولكن لم يَكن مرض «بيان» لإهمال من أمها بل كان صممها بسبب إهماله هو، عندما ترك العبء كاملًا على «نبيلة» التي كاد عقلها يطير من صراخ ابنتها على كتفها، ذلك الصراخ الذي لم ينقطع إلا عندما استفاق على خسارة جديدة لم يتحملها..

(خسارة «بيان»)..ولم تخسر «بيان» سمعها فقط.. بل فقدت معه الكثير..!

* * *

9

(ذاكرة مشوّهة)

أحيانًا تصبح الأشياء في عقلنا كقطع الـ «puzzles»؛ عندما تتضح الرؤية نسبيًا نستطيع تجميعها.. أما عندما يختلط الوهم مع الحقيقة فيُصبح كل شيء معقدًا.

قبل الحادث بعام..

هناك من يصحو على أصوات الأبواق ونفيرها في زحامٍ صَباحيٍّ مُعتاد.. وهناك من يصحو على أجراس المدرسة لتنبئ ببدء يوم دراسي مرير في حياة أطفال يكرهونها.. أما «بيان» فكانت تصحو مع أول شعاع للشمس عندما يتسرب على استحياء من بين واحدة من سنابك النافذة المكسورة ليكتب على عينيها صباح الخير هيّا لقد بدأ يوم جديد.. تنهض لتسمع مما تراه أمامها؛ صوت الصباح، هل للصباح صوتٌ.. صوت اعتدناه وأحيانًا كرهناه، أما هي فأحبَّته، تنتفض من



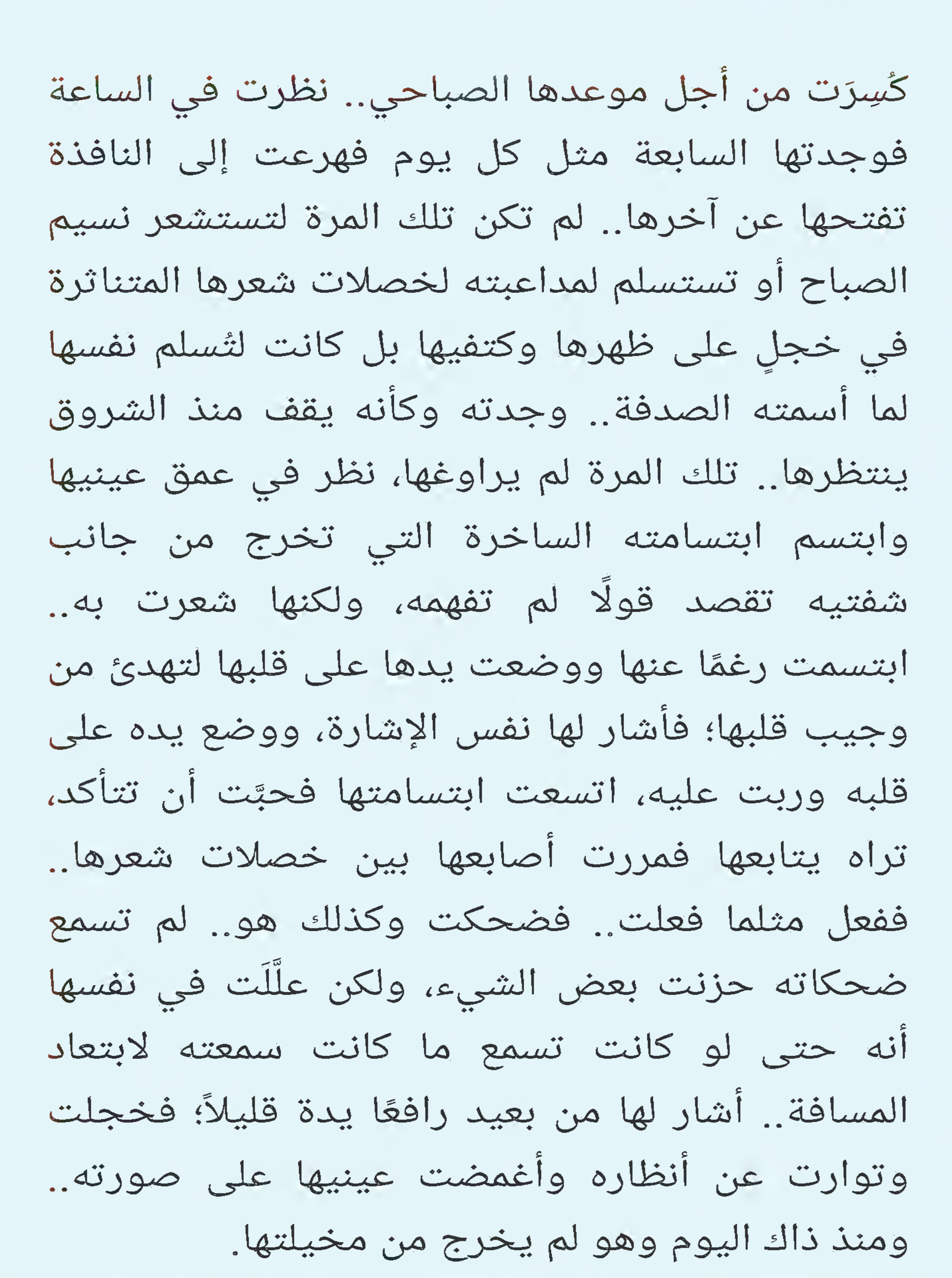
على فراشها تفرك عينيها وتفتح النافذة عن آخرها وتشعر بنسيم الصباح على وجنتيها.. فتغمض عينيها لتشعر بالهواء وهو يتخلل خصلات شعرها ثم تبدأ في مراقبة الطريق بكل ما فيه، جرى الأطفال اللاهون قبل ذهابهم لمدارسهم.. أُناسٌ تلتقي وتفترق.. سيارات تسرع وتبطئ وينزل منها صغارٌ منتشين بحقائبهم الملوَّنة متباهين بها.. كل شيء كان عاديًا ورتيبًا يتكرر كل يوم بنفس الأطفال والسيارات والأمهات اللاتي تقبعن أمام باب المدرسة وكأن لا شاغل لَهُن سوى أن يتسلمن أطفالهن من هذا السجن الذي يرغمن أطفالهن عليه ويطلقن عليه (المدرسة).. ما إن يهدأ الطريق حتى تعود أدراجها إلى فراشها.

ولكن في ذاك اليوم لم تعد، وجدته واقفًا هناك على الجهة الأخرى من الطريق ينتظر شيئًا ما، أطالت النظر.. ظنت أنه ينتظر أحدًا ما، ولكن هذا المكان ليس بموضع انتظار لأحد فهو تقريبًا تحت نافذتها، من حينٍ لآخر كان يرفع بصره لها.. اختبأت بعض الشيء ثم عادت تنظر له في خجلٍ، ظلَّ يتحرك أمامها كبندول

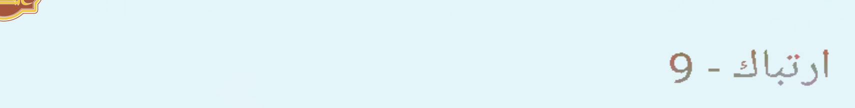
حائرٍ لا يعلم كيف يستقر فأجبرها على الخروج من مخبئها فظهرت جلية له، ابتسم لها فلم تبتسم بل اندهشت.. هل يقصدها هي أم أحدًا آخر في البناية التي يسكنون بها، وظلت تحصي الفتيات في بنايتها فلم تجد إلا هي حينها.. فجميعهن أطفال..

تتابعت أنفاسها.. إذًا هو يقصدها هي، لم تخرج هذه المرة من مخبئها، بل عادت إلى فراشها تُفكر من أين أتاها وكيف لم تره حتى وهو يقصد وجهته تلك التي كان يقف فيها كأنه ظهرَ من العدم وبدأت تتساءل: هل من الممكن أن تكون صدفة وجوده في تلك البقعة المقابلة لنافذتها، لكنها لم تجد إجابة.. ماذا إن كان يسمع ويتكلم.. هل يعلم أنها صماء؟؟ كلها أسئلة لم تجد لها إجابة، ولكن تناستها واستسلمت لدغدغةٍ لمست قلبها فابتسمت في خجل وتركته يسبح بداخلها.

من جديدٍ في اليوم التالي شعرت بشعاع الشمس تلك المرة كأنه أطلَّ من تلك القطعة المكسورة قاصدًا إياها في خفةٍ أكثر من ذِي قبل.. وكأن تلك القطعة قد



كُسِرَت من أجل موعدها الصباحي.. نظرت في الساعة فوجدتها السابعة مثل كل يوم فهرعت إلى النافذة تفتحها عن آخرها.. لم تكن تلك المرة لتستشعر نسيم الصباح أو تستسلم لمداعبته لخصلات شعرها المتناثرة في خجلٍ على ظهرها وكتفيها بل كانت لتُسلم نفسها لما أسمته الصدفة.. وجدته وكأنه يقف منذ الشروق ينتظرها.. تلك المرة لم يراوغها، نظر في عمق عينيها وابتسم ابتسامته الساخرة التي تخرج من جانب شفتيه تقصد قولًا لم تفهمه، ولكنها شعرت به.. ابتسمت رغمًا عنها ووضعت يدها على قلبها لتهدئ من وجيب قلبها؛ فأشار لها نفس الإشارة، ووضع يده على قلبه وربت عليه، اتسعت ابتسامتها فحبَّت أن تتأكد، تراه يتابعها فمررت أصابعها بين خصلات شعرها.. ففعل مثلما فعلت.. فضحكت وكذلك هو.. لم تسمع ضحكاته حزنت بعض الشيء، ولكن علَّلَت في نفسها أنه حتى لو كانت تسمع ما كانت سمعته لابتعاد المسافة.. أشار لها من بعيد رافعًا يدة قليلاً؛ فخجلت وتوارت عن أنظاره وأغمضت عينيها على صورته.. ومنذ ذاك اليوم وهو لم يخرج من مخيلتها.



لم تَكنْ تؤمن بالصُّدَف، ولكنها كانت تتمناها.. لم تفهم كيف تشعر عكس إيمانها وتتمناه بتلك القوة.. الصدف شيءٌ جَميلٌ في الحياة ومنها ما تأتي ومعها الإشارات فنغمض أعيننا عنها لمجرد أنها ربما رسالة من القدر.. القدر أيضًا يبعث إشاراته مع تلك الصُّدَف التي نتعثر بها.

لقاء سيدنا موسى بالعبد الصالح كان صُدفةً كانت خيرًا لموسى، وأيضًا عندما قَتل موسى هذا الرجل كانت صُدفةً أدخلت في قلبه الخوف، ولكن أتاه فيما بعد بيانٌ من ربِّه.. تلك الصدف التي نراها كذلك ما هي إلا قدر يحمل معه إشاراتٍ يجب أن نراها ولا نغفلها.. أما صدفة «بيان» فكانت إشاراتٍ، ولكن يبقى السؤال:

تُرى ما نوع الصُّدَف تلك التي ألقاها القدر في طريق «بيان»!

***

غادر النوم جفون «عامر» قبيل الفجر وإحساسه بالوحدة يكبر معه كل دقيقة.. فأمسك هاتفه يقلب



فيه علّة يتخدر من جديد ولكنه لم يستطع، سمع صوت أمه الهامس يلهج بالدعاء، رقَّ قلبه لها، اقترب من باب غرفته ينصت لها فوجدها تنتحب مع دعائها الهامس، لا زالت على مناجاتها لربها التي لم تنقطع عنه، عاد إلى فراشه وأمسك بهاتفه عندما تذكر كلماتٍ كان قد قرأها ذات يوم ولكثرة ما لمست قلبه حفظها:

قد شاخ صغيرك يا أمي

ما عاد صغيرًا يا أمي

قد غادر مهدَكِ كي يعرف

ولكني حقًا لم أعرف

ابتعت فراءَ الحملانِ

جربت مسوح الرهبانِ

ولبست دروع الفرسانِ

لكني

أقسم يا أمي

لم أخدع إلا مرآتي

حتى في ثوب الشيطانِ

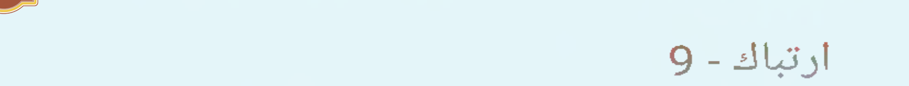
لم أدرك معنى لحياتي

ولعمري هذه مأساتي

ثم ذيلها بهاشتاج «أحمد خالد توفيق» قصيدة «شرايين تاجية»، لم تمر دقيقة حتى وجد «أمل» تعبِّر عن إعجابها بالمنشور بتعبير «أحزنني».. فزفر في ألمٍ وأغلق الهاتف.

سمع أذان الفجر ليهدِّئ من سطوة الألم الذي تغلغل داخل روحه، فتح باب غرفته واتجه إلى أمه ركع أمامها في خشوعٍ وكأنه منذ خرجَ من هذا الباب وهو في صلاة أمسك بيدها وقبَّلها وهمس ولا تزال يدها على شفتيه قائلًا:

- سامحيني..



ربتت على ظهره وضمَّته إلى صدرها سائلة إياه:

- مالك يا ابني، إنت كويس؟؟

ماذا يقول.. هل يخبرها أنه ليس بخير ولا يعرف أين الخير سوى بوجودها، هل يخبرها أنه لم يشعر بالحب إلا لها رغم ضعفها وقلة حيلتها، هل يبوح لها بأنه يريد أن يعود طفلًا يتأرجح على جلبابها ويلهو مثلما كان يفعل.. اختبأ داخل ذراعيها الواهنتين وارتكن على كتفها كما كان يفعل وهو صغير، بل إن أمنيته بتلك الاحتضانة أن يعود إلى رحمها جنينًا يختبئ به ولا يخرج منه أبدًا، فاضت عيناه بالدمع وهو يخبِّئ رأسه خلف كتفها ثم حدَّث نفسه قائلًا:

«آه يا أمي ياريتني أقدر أقولك إني تعبان، أنا محتاجلك انتي وبابا، عاوزكم إنتوا الاتنين جنبي، أنا اللي الوحدة نهشت فيَّ وسكنت قلبي، يا ترى هتستحملوا معايا اللي أنا فيه واللي «بيان» فيه»..

طال صمته حتى حثَّته «نبيلة» على الحديث قائلة:

- طمِّني عليك ماتسكتش كده في إيه؟؟

أدرك أنه ليس هذا وقت الضعف الذي لم يكن لديه قطّ وقتٌ لَهُ، خرج من بين ذراعيها وهو لا يعلم كيف يطمئنها وهو لا يشعر بالاطمئنان.. هل فاقد الشيء يبثه للآخرين؟ لا يعلم كيف حتى يكذب عليها وهي الأم التي تعلم كل شيء -مثلما تربى-، ولكنه كذلك كبر وعلم أن الأمهات لا يعلمن كل شيء بل يشعرن.. الأم تشعر أكثر مما تعلم؛ فجفف دمعه على استحياء ثم همس وهو يقوم واقفًا وكأنه أنهى صلاته قائلاً:

- أنا كويس يا أمي.. أنا كنت عاوزك بس تسامحيني.

سمع صوتها وهو يغادرها يلهج بالدعاء له بعد أن قالت:

- أنا عمري ما غضبت عليك علشان أسامحك.. أنا اللي كنت عاوزاك تسامحني.

كان طلبها أن تسامحه كسيفٍ شقَّ صدره نصفين، تساءل: عن ماذا يسامحها وهي تملك بداخل قلبها كل

صكوك الغفران؟ وكيف لمن يملك المغفرة أن يطلُب السماح بل إن بداخلها طُهرًا لم يكن إلا للملائكة.

غسل وجهه بالماء ومرَّر أصابعه على أذنيه علَّه يغسل تلك الكلمة التي تسللت إلى سمعه، توضأ ليتطهر وعاد إلى أمه قائلًا:

- انتي عمرك ما غلطتِ في حقي أبدًا علشان أسامحك.. ماتقوليش كدة تاني.

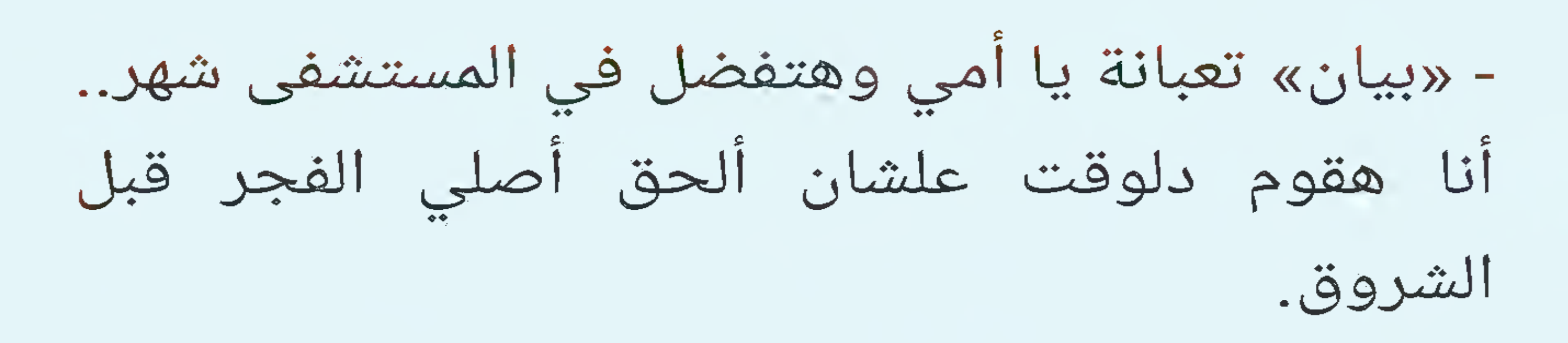
لم تجبه فقط، قالت:

- طمِّني على بيان.. هتسافرلها النهارده؟

أماء لها في صمت ثم أردفت قائلة:

- طيب هي كويسة يا ابني؟

ماذا يخبرها عن «بيان» وهو الذي لا يعلم شيئًا سوى أنها ستظل في المشفى شهرًا مع بعض التشخيصات الطبية التي لا تعلم عنها هي شيئًا.. بعد صمتٍ زادَ من قلقها قال:



- «بيان» تعبانة يا أمي وهتفضل في المستشفى شهر.. أنا هقوم دلوقت علشان ألحق أصلي الفجر قبل الشروق.

قام عنها ليس فقط لأداء الصلاة، ولكن ليهرب من عينيها.. فهمت هي ذلك فقالت له:

- أنا حضَّرت لها كل حاجة ممكن تحتاجها حتى الكُتب اللي بتحب تقراها.

ثم صمتت ولم تخبره بما وجدت في وسط حاجياتها.. فجاءت جملتها مبتورة وكأنما كانت ستكمل جملتها ثم تراجعت في آخر لحظة لكي لا تُفجِّر ما طلبت من أجله السماح.

* * *

10

(أحمالٌ ضاق بها حاملوها)

متى نعتقد أننا أخطأنا؟ بل متى نسامح أنفسنا على أخطائنا؟ ماذا لو أخطأ الذين نعتقد أنهم لا يخطئون.. هل هناك أحدٌ بلا خطأ؟!

كانت تلك التساؤلات تدور في رأس «عامر» ولا يزال يُفكر في كلمة أمهِ «سامحني» عن ماذا يسامحها.. من المفترض أن تطلب منه أن يسامح أباه.. هل يملك الأبناء مسامحة آبائهم؟ أم تراه سماح يؤخَذ بسيف الحياء.. وما أُخِذَ بسيف الحياء حرامٌ.

لم ينَم «عامر» مرة أخرى بعدما صلى الفجر ظلَّ يترقب شروق الشمس من نافذته ويستمع إلى كروان تائه اتخذ عُشًّا له على بناية مقابلة له.. فاعتاد أن يستمع إلى صوته الحزين كل يوم، أما اليوم فقد سقطت عنه الأُلفَة وارتدى زِيًّا جديدًا بنغمٍ آخر يغرِّد به وكأنه يسأل عن شيءٍ ما ولا يعلم كنهه، أو ربما لغياب

مَن نحب عنّا فكل شيء يختلف مِن حولنا حتى شروق الشمس نشعر به غريبًا باهتًا يشرق غصبًا عنه يؤدي واجبًا كونيًا لا علاقة بحب الشروق فأصبح وجود الشمس روتينيًا لا نشعر به شروقًا بل نراه حرارة وقيظًا.. هكذا تتغير الأشياء في أعيننا عندما يتملك الحزن روحنا.

قبل أن يذهب إلى وجهته بعدما حمل حقيبة «بيان» معه مرَّ على صديقه «وليد» أو كمان يقولون له دكتور «وليد» لحصوله على بكالوريوس الصيدلة، يمكث أربع وعشرين ساعة في الصيدلية يتخللهم استراحة غداء بسيطة يتناولها في منزله المجاور لعامر ولصيدليته أيضًا.. تجمعه بعامر صداقة طويلة ليس فقط ذلك.. بل هو صديقه الوحيد الذي يلجأ له عندما يحتاج المساعدة وقلّما ما كان «عامر» يشعر بذلك، ولكن في الفترة الأخيرة ازداد احتياجه له سواء في اختصاصه الصيدلي أو مثل تلك المرة التي كانت أول مرة يذهب له «عامر» فيها ليطلب منه مبلغًا من المال ولا يعلم هل يستطيع «وليد» أن يقرضه أم لا.. عليه أن يحاول

حتى وإن اضطرَّ للإجابة على تساؤله الذي ظلَّ يُلِحّ عليه به منذ أيام كانت الأصعب عليه وعلى «وليد» أيضًا الذي كان يعرض كل أنواع المساعدة من دون أن يعرف أيَّ سببٍ لكل ما حدثَ ويحدث، اكتفى فقط بتساؤلٍ لم يجد له إجابة فأعرض عن طلب الإجابة.. أما الآن.. كان «عامر» على استعدادٍ أن يجيب «وليد» على أيِّ تساؤل يتأرجَح بداخل عقله ليس فقط من أجل أن يُريحه، ولكن كان يُريد أن يُزيحَ هذا الحِملَ الذي زادَ على كتفيه وجعله لم يعد قادرًا على الوقوف.. كان يحتاج أن يخبر أحدًا عما هو فيه.. أحدًا يفهَم ويستوعب بدون أيِّ تعليقاتٍ.. وكان يعلم أنَّ «وليد» يمتلك أذنًا وقلبًا يستطيعان أن يحتويا العالم.

كانت الساعة السادسة صباحًا ولا تزال الشمس تتخذ موضعًا رقيقًا لها.. تفاجأ «وليد» عندما دخل عليه «عامر» ومعه حقيبة سفر.. لم يتفاجأ فقط، بل أصابه الفزع عندما لاحظ كبَر حجمها النسبي.. استقبله على باب الصيدلية وأمسك بذراعها منه وأمطره بالعديد من الأسئلة القلقة التي تنبئ بما فهمه «وليد» قائلاً:

- إيه اللي حصل.. ماعدتش عليَّ إمبارح ليه؟؟، وحاولت أتصل بيك بس إنت ما بتردش ومن شوية لقيتك صاحي على غير عادتك صاحي قبل الفجر، وبعتلك رسالة على حسابك بس إنت كنت قفلت، إيه اللي حصل؟ إنت اتخانقت معاهم في البيت.. وإيه كل الشنطة دي؟! رُد عليَّ يا عامر.

أمسك «عامر» بكتف صديقه قائلاً:

- ماتقلقش أنا كويس، نمت كام ساعة بس بعد ما رجعت من السفر وقلقت الفجر وماكنتش قادر أتكلم.. سامحني يا صاحبي.

لم يرد عليه بالطبع، هو فقط استنكر عليه طلبه الذي حتمًا ينبئ بأن هناك كارثة فلا يكونان معتادين على تلك الطريقة في التعامل، أخذه وأجلسه أمامه وقال له:

- مفيش بينَّا الكلام ده يا «عامر» قولّي بس مالك.. مارضتش أتقِّل عليك في الكام يوم اللي فاتوا لكن

أكيد هتحكيلي إيه اللي حصل مش كده!!

سكت قليلًا ليبحث عن أثر كلماته على وجه «عامر» وقبل أن يتفوه الأخير بكلمة استكمل «وليد» كلماته قائلاً:

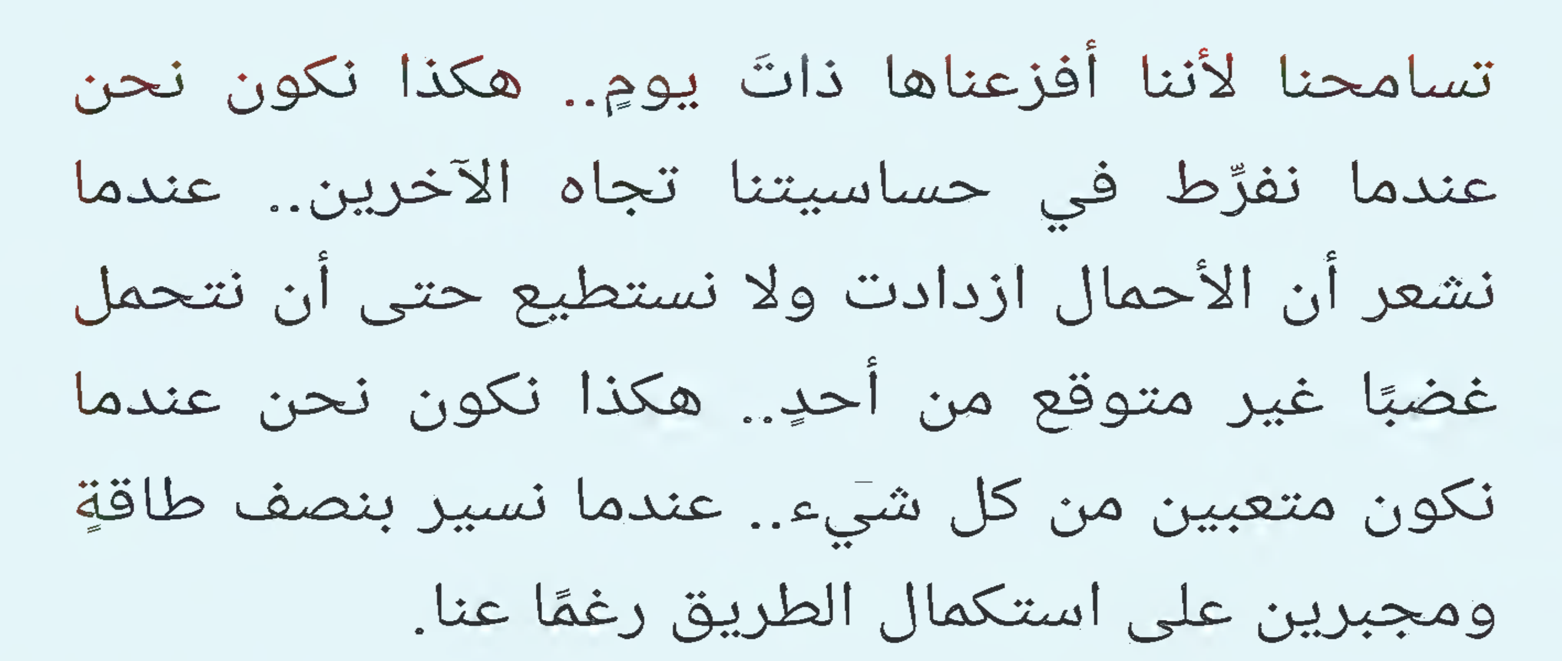
- ده مش فضول منِّي بس أنا عاوز أتطمن عليك وعلى بيان.

أماء عامر بالموافقة وأخبره أنه سيحكي له كل شيء ومن البداية.

ولكن قبل أن يبدأ في الحكاية كان هاتفه قد بدأ في الاهتزاز معلنًا عن وجود اتصال من أحدهم، رأى اسم «أمل» أمامه فألغى المكالمة وكتب رسالة نصية مفادها:

«سامحيني»..

هناك أوقات نطلب فيها السماح من الجميع وربما لو التقينا هرة في الطريق لاعتذرنا لها وطلبنا منها أن



تسامحنا لأننا أفزعناها ذاتَ يومٍ.. هكذا نكون نحن عندما نفرِّط في حساسيتنا تجاه الآخرين.. عندما نشعر أن الأحمال ازدادت ولا نستطيع حتى أن نتحمل غضبًا غير متوقع من أحدٍ.. هكذا نكون نحن عندما نكون متعبين من كل شَيء.. عندما نسير بنصف طاقةٍ ومجبرين على استكمال الطريق رغمًا عنا.

«عامر» كان يشعر أن عليه أن يصارع في جميع الاتجاهات في طريق شفاء «بيان» أو بالأحرى مرضها الذي لا يعلم نهايته ولا كيف سينفق على هذا العلاج وهو الذي لا حولَ له ولاقوة.. طريق أبيه وأمه وكيف سيخبرهما بمصاريف العلاج أو كيف سيدبرونها، هل سيتحمل اللومَ من جديد.. هل سيقولان له تصرف أنت طالما اتخذت القرار وحدك.. هل سيقفان بجواره في كل تلك المتاهات ويخرجانه منها؟؟.. لا يعلم، وهناك آخر طريق.. «أمل» التي لا يعلم لمَ جرحها بهذا الشك، ولا يعلم ما الذي يدفعه لهذا الجفاء غير المتعمد وكأنه كان ينقصه صراع جديد ليخوضه وهو بالكاد تكفيه صراعاته.. لا يريد أن يكون مصدر ألمٍ لأحد أو

حتى أملٍ لأيهم.. يريد أن يؤدِّي دوره فقط.. أن يتحمله مخزونُ الطاقة الذي يكاد أن ينتهي ويفرغ ولا يعلم كيف يستزيد منه وكل ما حوله قد اتفق أن يسحب آخر ما به.

أفاقه «وليد» من غفلته قائلاً:

- عامر.. إنت مش طبيعي في إيه مالك؟ أنا كده قلقت عليك إنت مش معايا خالص.

نظر في عينيه طويلًا وهو يحدِّث نفسه:

«نعم سأخبرك أنني لست على طبيعتي وأنني لست بخير.. سأخبرك أنني منذ أيام عندما أخذت منك المهدئ قوي المفعول لم يكن من أجلي بل كان من أجل «بيان».. سأخبرك أنني مررت بأهوال في ليلة قلبَتْ حياتنا رأسًا على عقب.. سأخبرك عن «آدم» الذي ظلَّ أيامًا يخاف من أمِّه، سأبوح بكُلِّ ما في صدري.. أنني وحدي وأحتاج من أستند عليه.. سأحكي القصة من البداية»..



ثم بدأ حديثه من حيث انتهت به أفكاره قائلاً:

- هحكيلك كل حاجة.. هحكيلك الحكاية من أولها.

***

قبل خمسة أيام

كنت قبل أيام في النادي الرياضي حيث أعمل.. ليس من عادتي أن أمسك هاتفي وأنا أعمل؛ ففي العادة أقوم بتمرين أحدٍ أو أتابعه، جاءني اتصال من أمي في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، ولم تكن تلك عادتها لتهاتفني في هذا الوقت الذي عادة ما تكون فيه في نومٍ عميقٍ، طافت بي الأفكار.. تُرى أيكون أبي مُتعبًا.. أم تراها أمي هي المُتعبة لم يخطر على بالي ما قالته، حاولت أن أستمع إلى ما تقول وسط ضجيج المكان وكأنها تعلم أو أنها لم يكن على لسانها سوى جملة واحدة ظلت تكررها عدة مرات إلى أن التقطتها أذني وهي تقول:

- «بيان» يا عامر.. تعالى بسرعة.

أغلقتُ الهاتف وارتديت ملابسي على عجلٍ بعد أن أخبرتهم أن لدي ظرفًا طارئًا، كان جسدي ما زال ساخنًا من أثر التمرين فلم أنتظر سيارة للأجرة في هذا الوقت من الليل وأخذت أركض إلى أن وصلت إلى المنزل.. سمعت صراخًا مكتومًا وأنا أعتلي درجات السُلَّم بشكلٍ جنونيٍّ.. لم أكن أعلم كيف سأولج المفتاح في الباب لكي أفتحه، ظللت أحاول وكأنه يعاندني وبالنهاية فُتح لكي أرى ما لم أتوقعه يومًا..

«بيان» تمسك بسكين ويدها ترتعش وعيناها تبحث في كل مكان عن شيءٍ لا أعلم ما هو، وصوتها الهادر الذي لا تسمعه بل يكاد يصيبنا نحن بالصمم.. أسمع صوت أمي وصوت «آدم» يبكيان من خلف باب غرفتها.. أبي لا وجود له.. فيما بعد علمت أنه لم يعُد بعد.

عندما رأتني «بيان» ازاد إتساع عينيها.. هرولتُ إليها فوجدتها تشهر سكينها تجاه صدري فأبطأتُ من سرعتي وأشرت لها بيدي:

- ماتخافيش.. إيه اللي حصل، انتي إتخانقتِ مع ماما؟!

افترضت هذا الافتراض اللامنطقي.. فيما بعد علمت أن كل ما في هذه الليلة ليس به من المنطق شيءٌ، ازداد صراخها ونظراتها غير المستقرة، وفي غفلة منها أمسكت بيدها وأسقطت السكين.. كان بها قوة فاجأتني بها «بيان» الرقيقة التي لم أعهدها بتلك الشراسة، انقضَّت على يدي تحاول أن تعضها.. نالت منها بعض الشيء.. فأسقطتها بضربة قوية من كفي على وجهها فارتمت تحت قدميّ مغشيًّا عليها.. هدأ صراخ «بيان» ولا يزال «آدم» يصرخ وأمي تبكي، ذهبت إليهما لأخبر أمي أن تطمئن وتفتح لي الباب.. أريد أن أفهم ما الذي حدث، ولكن عندما فتحت لي أمي باب الغرفة وجدت عنق الصغير به جُرح.. وما إن رآني حتى اختبأ في صدري قائلاً:

- ماما.. سكينة..



نظرت إلى أمي وعينياي تحثانها على أن توضِّح لي ما حدث فقد لُجِّم لساني ولم أستطع أن أخرج كلمة واحدة.

لم تتركني أمي في حيرتي طويلًا؛ علمت منها أنها استيقظت على صراخ «آدم» فظنت أنه قد حلمَ حُلمًا مزعجًا فقامت بتثاقل لتراه؛ فلم تكن لأمه أن تسمعه مهما فعل؛ فذهبت إليه لتجد «بيان» تقف بجوار الفراش وفي يدها سكين وتحاول أن تمسك به لتكمل ذبحه.. كان الصغير يريد أن يختبئ منها وكأنه يريد أن يدخل بالجدار ليكونا سواء ولا تراه، ولكن لم يحدث.. أمسكت به وهو ينتفض بين يديها فلم تستطع أن تكمل ما كانت تفعل.

أمي المريضة التي لا تستطيع أن تهرول.. ولكنها جرت إليها لتدفعها بعيدًا وتأخذ الصغير من على فراشه وتهرول إلى غرفتها وسط صراخ «بيان» الذي لم يعبِّر عن أي شيء سوى زئير أسد يريد أن ينقض على فريسته فقط.



قاطعه «وليد» قائلاً:

- «بيان» كانت عاوزة تقتل آدم.. إزاي ده.. أنا مش مصدق!!

ردَّ «عامر» مؤيدًا لكلماته قائلاً:

- أنا كمان ماكنتش قادر أصدق.. إن كل ده يحصل لأسرتنا البسيطة ومش في فيلم ولا رواية.. أنا عايش شيء أغرب من أي خيال.. أنا بلوم نفسي على كل حاجة يا وليد، تفتكر لو أخدت بالي من التفاصيل اللى كانت بتحصل وأنا مش شايفها كان القدر هيتغير؟

نظر له «وليد» في آسف قائلًا:

- محدش بيقدر يغيَّر القدر، إحنا بس كل اللي نقدر عليه إننا بنختار نرفضه أو نقبله هي دي الحياة، أكيد اللي إنت فيه مش قليل بس حاول دلوقت تشوف الحل إيه.

أومأ «عامر» له ثم اكمل:



- دلوقتِ «بيان» في المستشفى.. لسه تحت الفحص والاختبار ومش عارف إيه اللي تاعبها.. بس قلبي بيقولي إن الموضوع هيطوّل وإنه هيدخّلنا في نقطة مالهاش نهاية.

- ماتقلقش إنت بس.

ثم صمت الاثنان وكأنهما ينتظران طمأنينة من طرف ثالث لا يراه كلاهما.. طرف غائب..

عندما يفرض القلق سطوتة على عقولنا تغيب السَّكينة والهدوء، ويقف كل شيء صاغرًا مرتعبًا أمام شيءٍ مُفزعٍ يُطلَق عليه (المجهول).

* * *

11

(صور مهتزة)

نظن أننا تركنا الماضي خلفنا، ولكن نكتشف أننا نعيشه بكل تفاصيله بداخلنا بل أسوأ.

أمسكت «أمل» بهاتفها وهي تتهجى رسالة «عامر» لها على الهاتف وكأنها لا تستوعبها، وتساءلت لمَ يطلب منها أن تسامحه. حاولت أن تهاتفه ولكنه كان قد أغلق هاتفه.. تمنَّت أن تُسافر معه رغم ما حدثَ بالأمس.. حيَّرها شعورها هذا، ولماذا تعاود الاتصال به من جديدٍ بعد كل طلقات الرصاص التي أطلقها مباشرةً في قلبها بدون أن يرجف له جفن.. لمَ الآن يطلب أن تسامحه، هل من أجل ذلك تحبه؟ أرهقها تفكيرها فغفت عيناها وهي تهمس:

«سامحتك»..

من السهل أن تُسامح غيرَك عندما يصيبك سهم الحب الرحيم.. فيصبح الخطأ لهوًا.. والعتاب هواية..



والنسيان أمرًا واقعًا، أما عندما يؤذيك أحدهم وتكرهه من كل قلبك تستجدي السماح فلا تجد له مكانًا داخل قيمك التي تربَّيتَ عليها.. بل أحيانًا تشعر أنك نسيت كيف تستطيع أن تُسامح نفسك في زحام نسيانك لطريق غفرانك للآخرين فتجلد ذاتك وتظن أنك تجلدهم بكرهك لهم.

أفاقت من غفوتها على صوت أمها وهي تناديها.

- أمل.. هو انتي مش هتسافري مع «عامر» زي ما قولتيلي امبارح؟

فركت عينيها ونظرت إلى هاتفها لعلَّها تجد رسالةً أن هاتف «عامر» قد فُتِح؛ فوجدته خالي الوِفاض من أي شيء فعادت بنظرها لأمها قائلة:

- لا مش هسافر.. هو هيسافر لوحده.

ضربت على صدرها قائلة:

- ليه؟! حصل حاجه.. وشك كان جايب ألوان امبارح، في إيه؟؟

أجابتها بعصبية ظاهرة:

- ماحصلش حاجة وبطّلي بقى تحطيني قُدّام الراجل بالشكل ده.. «عامر» مش أي راجل ويكون في علمك أنا بحبه.. هو مش مجرد عريس عاوزة تجوزيهولي وخلاص.

قطبت الأم جبينها، وقالت بعصبية أشد من ابنتها:

- أنا!!.. أنا مش برميكي في طريق حد.. أنا بس عاوزة...

ثم صمتت منكسة رأسها وكأنها تحاول أن تبتلع كلماتها فأكملت «أمل» لها كلماتها التي ابتلعتها قائلة:

- عاوزة إيه!! ماتقوليش إنك عاوزة تتطمني عليّ، لسه بتلومي عليّ مش كده؟ مفيش فايدة انتي مش هتتغيري أبدًا.

نظرت في عينيها من جديدٍ قائلة:

- عايزاكِ تتجوزي.. هو أنا أبقى غلطت في ده، أي أم بتبقى عايزة تجوز بنتها، كده يعني يبقوا كل الأمهات غلطانين.

أشاحت «أمل» بنظرها عن أمها بعدما رمتها بنظرة نارية، ثم قالت لها وهي لا تزال تنظر في وجهتها بعيدًا عنها حتى لا تصطدم أعينهما:

- لا لا.. انتي لسه بتحمّليني ذنب طلاقك، عاوزة تتجوزي اتجوزي، لكن يكون في علمك أنا مش هقعدلك في البيت ده، وكفاية أوي إني من وقت ما بابا مات وأنا لوحدي وانتي في ملكوت تاني خالص.

ولتها ظهرها ثم وقفت وقالت:

- أنا مش عاوزة أتجوز يا بنتي ولا حاجة حتى ظروف جوازي كانت ليها أسباب ومش عارفة انتي جبتِ فكرة إني عاوزه أجوّزك علشان أنا أتجّوز دي منين!!.. كل اللي عاوزاه إني أتطمّن عليكِ.

قالت «أمل» هازئة:

- لا يا ستي اتطمني.. بس مش هريّحك أبدًا في اللي نفسك تعرفيه منّي من خمس سنين.

أغلقت الأم باب الغرفة في هدوءٍ، ولكن قلبها وعقلها كان يدور بهما عاصفةٌ من الذكريات المؤلمة، تركت العنان لجسدها ليسقط على أريكتها وخبأت وجهها بكلتا يديها تاركة عينيها تذرفان دمعًا مريرًا.

أن ترى نفسك في عيون الآخرين عبارة عن مسخ لا تعلم عنه شيئًا، وتشعر بعيونهم كأنها سياط تلهب جلدك مع نظراتهم فتنكمش في قوقعتك شاهرًا عبارة واحدة (لست بتلك البشاعة)..

ظلّت أم «أمل» سنواتٍ تحاول أن تجعل ابنتها ترى الحقيقة، ولكنها لم تكن تريد أن تفتح عينيها سوى على ما رأته منها منذ خمس سنوات.

***

شهق «وليد» بعدما أخبره «عامر» أن «بيان» في مستشفى نفسي.. رقَّ قلبه على صديقه بعدما عَلِمَ الحِمل الذي على أكتافه.. فربَّت على كتفه قائلاً:

- مكسوف ليه يا «عامر» من اللي «بيان» فيه!!.. إحنا...

لم يترك «عامر» له المجال أن يُكمل تلك الديباجة المملة التي يرددها في عقله دومًا قائلًا:

- عارف.. إحنا متعلمين وعلى وعي وثقافة.. و.. عارف كل ده، وما أنكرش إني بحس بالخجل، عاتِبت نفسي كتير على اللي بَحِسُّه، جوايا ملايين الأسئلة اللي مش لاقي ليها إجابة، بنتكلم عن العِلم والتعليم وفي بلدنا هنا رفضوا إنهم يستقبلوا «بيان» في مستشفى التأهيل النفسي.. عارف ليه؟ لأنها خرسا، مش عارف إزاي قادرين يرموها كده برَّه المستشفى، مع إن ما مرِّش أكتر من ساعة ليها جوه المستشفى اللي ادُّوها فيها الحقنة المهدِّئة.

شحذ أنفاسه كأنه يسحبها من تحت عجلات شاحنة تجثم على صدره ثم استكمل قائلاً:

- ودلوقتي اتحجزت في مستشفى خاص.. عارف بقى تكاليف قعدتها هناك أدَّ إيه، ستة آلاف في الشهر ومش عارف إزاي هقدر أدبرهم، سِبتها ليهم وكأني سايبلهم رهان ومش هاخدها إلا لما أدفعلهم.. ولو قدرت أجمع فلوس الشهر ده طيب هجيب منين لو علاجها طوِّل أكتر من شهر.. جاوبني وقولِّي؟

لم يجرؤ «عامر» أن يُطلب مالاً من صديقه مباشرة، كان ثقيلًا على قلبه أن يمُد يده إليه، ولكن لم يترك له «وليد» مجالًا كي يطلب فقال له:

- عامر.. أنا معايا ألفين جنيه تعالى معايا دلوقتِ أسحبهملك من البنك.. يلا علشان ماتتأخرش.

تملك من «عامر» الخجل وحاول أن يفلت من العرض الذي انتظره.. أبت نفسه أن يفعلها وتحجج بالسفر رغم أن «وليد» قِبلته الوحيدة، ومع إصرار صديقه

أخذهم بنفسٍ ذليلة على أن يدفعهم دفعةً للمستشفى ويدبر المبلغ المتبقي مع انتهاء إقامتها.

استقل الحافلة واتجه إلى القاهرة في رحلة جديدة وليست الأخيرة، لا يزال يرى الطريق غائمًا رغم انتصاف الشمس في كبد السماء.. فتيقَّن أن الغيوم في عينه من أثر الدمع المصفوف على حافة عينيه.

يُولَد الحزن كخلية سرطانية لا نشعر بها بداخلنا إلى أن يأتي شيءٌ ما فيجعلنا ندرك خيوط الحزن التي تشعبت بداخلنا وانتشرت وأحكمت قبضتها علينا فنبكي الوجع الذي تغلغل فينا.

***

في المستشفى

طلب «عامر» أن يرى «بيان» ويسلِّمها الأشياء الخاصة بها فلم يمانع الطبيب المعالج قائلًا:

- مفيش مانع بس خلي بالك هي لسه تحت تأثير جلسة الكهرباء فممكن تنسى بعض التفاصيل أو يكون

ليها رد فعل غريب عليك فماتقلقش.

كان «عامر» يعرف أن من ضمن البرنامج العلاجي أنها سوف تتعرض لجلسات كهربائية بعدما علمَ كيفيتها وأن تأثيرها في العلاج أسرع من العقاقير؛ فأومأ موافقًا على كلماته ثم سأله:

- حضرتك عملتلها الاختبار اللي يحدد هي عندها إيه بالظبط؟

- لسه مش دلوقتِ، صعب تكون إجابتها على أسئلة الاختبار دقيقة.. أو إنها ماتبقاش فاهمة معنى الأسئلة.

- هيَّ الأسئلة صعبة للدرجة دي؟!

- لا أبدًا، كل الحكاية إن إدراكها واستقبالها ليها هيكون ضعيف بعد جلسات الكهرباء.. صعب إنها تُصبر إنها تجاوب على فوق الـ 300 سؤال ولّا انت مش معايا في كده!!

- إمممممم آه أكيد معاك عندك حق.

وقبل أن يغادر الطبيب عاد «عامر» يسأله من جديدٍ:

- طيب حضرتك دلوقتِ بتديها الجلسات والأدوية دي على أساس إيه وإنت ماحددتش هي عندها إيه بالظبط؟

- أستاذ عامر.. الاختبار ده مجرد روتين عشان نتأكد.. لكن فيه أساسيات للمرض العقلي سواء في التشخيص أو العلاج، وحتى الاختبار مش بيدِّينا نتيجة مِيَّة في المية ولكن نسبته في تأكيد المرض بتكون عالية وبشكل أدق، مفيش حاجة مؤكَّدة في الحياة، كل حاجة نسبية ولكن مع نتيجة الاختبار والأعراض بتدينا النتيجة النهائية اللي إحنا عايزينها مش أكتر من كده.. أتمنى تكون فهِمتني.

-إمممم.. أكيد فهمتك، شكرًا ليك.

قالها بعدما انتقل إلى الغرفة ليجد «بيان» ما تزال بملابسها التي تركها بها في الأمس، كانت واجمة لا تُحرِّك ساكنًا ، اقترب منها ووضع الحقيبة بجانبه ثم

سألها عن حالها فأومأت برأسها فقط فلم تكن تستطيع حتى أن تحرك يديها، فتح الحقيبة وأخرج منها بعض الروايات التي تحب قراءتها فنظرت لها في تراخٍ، ثم أشارت في هدوءٍ سائلة إياه:

- جبت لي قلمي الأسود وإنت جاي؟!

لم يعلم بماذا يجبها أو فيما تريده وهي حتى لا تملك أوراقًا لتكتب عليها، ولكنه علمَ بعد عودته.

في طريق العودة نعيد مشاهد الأمس؛ فنجد أننا افتقدناه كثيرًا.. هكذا شعر «عامر» وهو عائد إلى مدينته؛ أنه افتقد عينيّ «أمل» اللتين لم ترفعهما عنه ولم يتحملهما فحمَّلها ما لا تُطيق ولا تستحق؛ فأمسك بهاتفه وقام بفتحه فإذا بسيل من الرسائل تحمل أسماء عدة، ولكن ما حاز اهتمامه اسم «أمل» وهو يحمل في طياته رساله تحتوي على كلمة واحدة «محتاجة لك».

* * *

12

(يومٌ كالدهر)

نمسك بقلمنا لنكتب بعض كلماتٍ جالت بخاطرنا فنجد أن ما كتبناه دماء سالت على السطور.

كان يومًا غائمًا أشرقت فيه الشمس شروقًا شرَفيًا ليفرض اللون الرمادي سطوتَهُ على السُّحُب وتبكي السماء بكاءً خافتًا وكأنها ترمي بالوجع الذي بداخلها ليكتب على صفحة البحر كلماتٍ وحده يفهمها والوحيد الذي يستطيع أن يستوعبها.

هكذا شعر «عامر» في طريق عودته من مدينة الزحام عندما وجد رسالة «أمل» على هاتفه.. دقَّ قلبه دقات سريعة عندما قرأ تلك الكلمة كان يريد أن يهاتفها ويعيدها عليها؛ أنه أيضًا يحتاجها، ولكن أعرض عما شعر بل وسخر منه أيضًا.

ظلَّ يصارع أفكاره فأنهك وأرجأها إلى حين العودة.. ولكن عندما عاد ودخل إلى المنزل وجد أمَّه تنتظره

على كرسيها أمام التلفاز الذي لا تشاهد منه شيئًا، تعجَّب عندما رآها تقرأ في ذاك الدفتر الذي احتوته بين يديها بعدما حاولت أن تخفيه ولم تستطع، كانت تبكي في صمتٍ وآدم يلهو تحت قدميها في لعبته الصغيرة فاقترب من الصغير وحمَلَهُ بين ذراعيه وأجلسه على الكرسي المجاور لها قائلاً:

- مالك يا أمي.. كنتي بتقري كتاب ولّا إيه؟

هكذا رآه فلم يستطع عند دخوله أن يتبين إن كان كتابًا أم دفترًا، حاولت مسح عينيها قائلة:

- ولا حاجة.. قولّي «بيان» عاملة إيه، طمني عليها.

أدرك أنها تخبئ شيئًا فأجابها وهو عازم على أن يعرِف ما الذي تخبئه بينها وبين مسند الكرسي قائلاً:

- «بيان» كويسة ماتقلقيش عليها.. قوليلي حطيتِ لها قلمها الإسود؟ أصلها سألت عليه.

لم تجب عن سؤاله ونظرت مليًا في التلفاز قائلة:

- أكلت حاجة؟؟ إستنى أقوم أحضرلك العشا زمانك جعان؟

أمسك بيدها قائلًا:

- إستني يا أمي في إيه مالك، مخبية عني إيه!!

أدركت أنها لن تستطيع تأجيل ما يثقل قلبها فمدَّت يدها إليه بالدفتر وهي تنهض من مكانها قائلة:

- اقرا اللي مكتوب في الدفتر ده.. ده دفتر «بيان» أختك، هقوم أحضَّرلك الأكل.

نهضَت وتركت عالمًا من الخطوط التي كُتِبَت بالقلم الأسود بين يدي «عامر» وهو لا يعلم ما بها؛ ففتح أول صفحة وجد بها كلمات من «بيان» تقول فيها:

«إلى كل من وقفوا بعيدًا مكتوفي الأيد يشاهدونني وأنا أسقط

لولا أعينكم التي كانت تشاهد ولا ترى ما كتبت اليوم شيئًا»



بيان

***

الوقت كان ثقيلًا جدًّا على «أمل» وهي تنتظر وصولَ عامر.. ظلّت تتنقل بين النافذة والباب أمام أعين أمها، غير عابئة بنظراتها أو استجدائها لها في أن تجلس وتستمع إليها.. لا تزال كلمات «أمل» لها تشق صدرها نصفين، ولكن كلتاهما كان الجُرح غائرًا في قلبها ولا تدري كيف تداويه.

قطعت الصمت أم «أمل» قائلة:

- اقعدي يا بنتي شوية.. أنا هروح أتطمن على أم «عامر» كمان شوية.

رمقتها بنظرة نارية تريد إسكاتها بها وظلت بين هاتفها والنافذة والباب تتأرجح كبندول ضلَّ عن طريقه فأكملت أمها قائلة:

- أنا عارفة إنك مش عاوزة منِّي حاجة.. بس أنا كمان عاوزاه يكون من نصيبك.

وقفت كمن أصابَها مَسٌّ شيطاني لتقول لها:

- اسكتِ بقى.. أمنياتك دي خليها لنفسك.. لو كنتِ فعلاً عايزة تطمّني عليَّ كنتِ صدقتِ اللي قُلتهُولك بس انتي مش عايزة، حلفتِلِك كتير أيامها ودلوقتِ خلاص مصدقاني من غير حلفان.. طيب إشمعنى دلوقتِ!! عشان خطتك تكمل، اطلعي انتي بقى من الموضوع خالص، أنا مش محتاجة أم زيك.

كانت «أمل» مُصرة أن تزيد من طعانتها في قلب أمها بلا هوادة أو رحمة؛ مما جعل منها كالحمامة التي تنتفض وتضرب بأجنحتها في كل مكان من أثر نزفها فصرخت الأم قائلة:

- كنتِ عاوزاني أعمل إيه وأنا ما أملكش غير المعاش اللي مش مكفي حاجة ويادوب معيِّشنا.. انتي فرحتِ لما أنا اتطلقت، طيب وأهو دلوقتِ مش لاقين حد يشيل مصاريفنا، حتى كل شغلانة تروحيها تقعدي فيها كام شهر وتسيبيها وترجعي تقعدي في البيت



ونرجع تاني برضو نعيش على أدّ الكام قرش بتوع المعاش.

أحكمَتْ ذراعيها حول صدرها في تحدٍ قائلة:

- قُلتلك عايزة تتجوزي عشان حد يصرف علينا ماعنديش أي مانع بس وقتها تنسيني نهائي، وأنا برضو يعني مش مجبرة أفضل أكمل في شغلانة كل يوم تتهان فيها كرامتي، وأحس إني مجرد حتة لحمة كل الكلاب عايزة تنهشها، زي...

قاطعتها أمها في حدةٍ وغضب فاقَ حدَّه:

- إخرسي.

- لا مش هخرس بعد كده.. ولا انتي ماعندكيش مانع طالما بره البيت ده؟

قامت أمها من مكانها لتسكتها بصفعة من يدها التي ترتعش فأمسكتها «أمل» في قوة قائلة:

- مش هخليكِ تضربيني من النهارده.. أنا ياما أخدت منك ضرب انتي وجوزك، من بعد ما ماتت جدتي وأنا كل شوية بتضرب من إيديكم ومن لسانكم.. ابعدي عني بقى.

تركتها تسقط على الأرض ودخلت غرفتها تبكي.. كلتاهما كانت تبكي.. ولكن كل منهما تبكي على شيءٍ بداخلها شيءٍ كُسِرَ ولن يعود من جديد.

يقولون إن ما كُسِرَ يتم إصلاحه وهم لا يعلمون شيئًا عن كسر القلوب والأرواح، عندما تُشَقُّ الرّوحُ لا يمكن تضميدها تظَلُّ مهشمةً وتدور روحه مشتتة بين جنبات الجسد لا تعلم هل تحيا أم تعيش موتًا مؤقتًا إلى أن يجمعها الله وتخرج بذات الوجع الذي عاشته في موات بطيءٍ.

عادت «أمل» تمسك بهاتفها لتكتب رسالة نصية لعامر قائلة:

«أرجوك.. كلمني».

***

هناك أيام تمر تشعر أنها دهرٌ كاملٌ.. تجاهد أن ينتهي ذاك اليوم، ولكن هيهات فبِهِ مُقدَّرَاتٌ يجب أن تتلقاها في صمتٍ وخضوعٍ ورضا بما كُتِبَ فيها، ولكن من أين يأتي الرضا بعد ما سيعلمه «عامر» في هذا اليوم الثقيل، وصلته رسالة «أمل» وكأنها تنقر على جدران قلبِهِ بقوةٍ تحاول الدخول.. ولم يكن قلبه قويًا بالدرجة الكافية فهاتفها وقبل أن يستمع إلى صوتها قال لها:

- أنا كمان محتاجلك.

خُلِقنا لنحتاج.. وعندما نُعبِّر عن احتياجنا نُقتَل به.. غريبة تلك الحياة.

* * *

13

(شمس الحقيقة)

مواجهة الحقيقة كالنظر في عين الشمس؛ موجعةٌ حقًا، ولكن خير لنا من أن نتجاهلها ونعيش المتبقي من أعمارنا في ظُلمة الوهم.

يفرحنا شعور أن أحدهم يحتاجنا.. نشعر بأهميتنا في ذاك الوقت، يتجسد وجودنا في تلك الكلمة البسيطة وإن لم توجد نخلق من يُشعِرنا بها في خيالنا ونظل نحلم بتلك المشاعر، بُنيت خطايا البشرية على الاحتياج عندما قتلَ قابيل هابيل لم يكن دافعه للقتل إلا أنه كان يحتاج القبولَ ليس أكثر، شعر أنه بلا قيمة عندما رُفِضَ قربانُه وقُبِلَ من الآخر.. لكل عملة وجهان، حتى الاحتياج به الخير والشر، تلك هي أقطاب الخليقة.

أسلمت «نبيلة» نفسَها لأحضان «آدم» الصغير الذي لا تزال ذراعاه صغيرتين، ولكنهما كانتا تعوضان «نبيلة»

عن احتياجها لتلك الضمة التي تحتاجها حتى لو أعطاها إياها ذاك الصغير الذي تحتويه بذراعيها أكثر مما يحتويها.. صادقون الأطفال في عطائهم للحب بقدر احتياجهم له فإنهم يعطون.

ربما لم تكن تعي ذاك الاحتياج مع طفليها وكرهت اللجوء لهما.. ربما لأنهما يُذكِّرانها باحتياجها الدائم لجلال الذي كان لا يعنيه إلا أمه التي فقدها.

نحن بارعون جدًّا في الكذب على أنفسنا تحت وطأة الاحتياج، هكذا شعر «عامر» عندما همس بتلك الكلمات إلى «أمل» التي لم تصدِّق أذنيها وزفرت زفرةً مرتعشة من أنفاسها لم تقاوم معها هطول دمعها الصامت الذي شعر به «عامر» فهمس والندم يملأ قلبه قائلًا:

- أنا آسف سامحيني ماكانش قصدي أجرحك إمبارح.

ملأت رئتيها بذاك الهواء الكاذب تحاول أن تسيطر به على بكائها قائلة:

- لا عادي ولا يهمك.. أنا عاوزة أشوفك وأتكلم معاك.. محتاجة عنيك تحضنّي.. ممكن ولّا صعب!!

كان خائفًا من ذاك اللقاء فحاول أن يٌسوِف ليؤجل تلك اللحظة:

- إممممم، أنا تعبان النهارده ممكن يوم تانيِ؟!

شعرت أنه يهاب لقاءهما.. لم تكن تريد أن تُشعره بأي ذنب تجاهها فتمالكت أنفاسها ثم قالت:

- مش إنت السبب في دموعي دي يا عامر.. أنا بس عاوزة أشيل الهم ده من على قلبي، أنا عارفة إنك تعبان لكن ماليش غيرك.

لم يجد بدًا من تحديد موعد معها حتى تهدأ دموعها وتعود إلى مكامنها قائلًا:

- طيب بكرة نتكلم.. أنا كمان مابقتش قادر أستحمل.

حاولت أن ترضى بذاك الموعد.. حدَّثت نفسها أنه لا ضير في أن تتحمل أكتافها الحِملَ الذي يُثقلها حتى

يأتي الغد ولم تكن تعلم أن أملها في هذا اليوم سيتحول إلى ألمٍ!!

أما «عامر» فعاد إلى ذاك الدفتر الذي يحمله بين يديه بعدما تجاوز بعضَ العبارات المُتفرقة وغير المترابطة التي لم يفهم منها شيئًا؛ فقلب الصفحات حتى وجد تلك الرسالة التي هزت كيانه كتبت فيها.

رسالة إلى مجهول

أنا أؤمن بكل ما تقوله عنِّي.. أعلم أنني ضعيفة وساذجة كذلك يُخبرني «عامر» ليس «عامر» فقط بل جميعهم يشعرونني بذلك؛ يُغلقون أعينهم عنِّي حتى لا يرون ما أريد أن أقوله.. أنت فقط من تلازمني برغم كل ما أنا فيه.. أنت تراني مثلما أرى نفسي، وبرغم إيلامك لي، إلا أني لا أريد أن تذهب عنِّي، أُخبِّئك عن الجميع، ولكنك معي في كل مكان، أشعر بك، ليتني أستطيع أن أسمعك أو حتى أسمع نفسي.. هل تعلم لمَ أكتب لك وأنت أمامي، ربما لكي ترى شيئًا آخر غير إشاراتي الباهتة.. ليس كل شيء أستطيع أن أعبِّر عنه

بالإشارة.. هل تشعر!! نظراتك تحفِّزُني على أن أكتب أكثر.. تُخبرني أنك تريدني لك وأنا أيضًا، ولولا وجودك ما كُنت أنا هنا الآن، الجميع يكرهونني لاختلافي عنهم، أشعر أنني في قوقعة بعيدة عنهم، حتى «آدم» لا أشعر به مثلما أشعر بك.. هل لك أن تخبرني لماذا عليَّ أن أُنفِّذ ما تأمرني دومًا به؟.. لن أخبر أحدًا اطمَئِن.. هل إن نفَّذت أوامرك سأستحقك.. أنا لا أستحق شيئًا أعلم، دومًا تخبرني بذلك.. أنا أيضًا أخبر نفسي بذلك بل الجميع يخبرونني بذلك، أنا لا شيءَ.. أنا فقط فقاعة هواء.

ظلال دُمية

بكى «عامر» عند قراءته تلك الكلمات.. لم يُشعِرها يومًا بما تقول بل كانت تصرفاته طبيعية كأي أحدٍ، ولكنه حقًا لم يعطها الاهتمام الذي تريده، لم يفهمها مثلما كان يدعي، قلب الصفحات أكثر فوجدها تكتب بعنوان:

أمي ليست «نبيلة»

نعم.. أخبرَتْني اليوم أني قد جاءني خاطب.. لم أكن أريد أن أبتعد عنك فعارضتُها بشدة وثرتُ ثورةً هوجاءَ.. نعم أعلم أنني بلهاء حتى في ثورتي، لم أستطع أن أخبرها، ولا أعلم لماذا قالت لي إن لا أحدَ سوف يرضى بي لأننَي صماء، أخبرتني أن ذاك الخاطب طبيعيٌّ يتحدث ويسمع، وأنه كرمٌ منه أن يقبل بفتاة مثلي.. ضحكت عندما قالت ذلك وكأنَّ جاءني كَنز، أخبرتني أنه يكبرني بخمسة عشر عامًا، وأنه سوف يحتوي إعاقتي، وأنه رجل هادئ الطباع وكل ما يريده امرأة تحتوي صمته.. ولكنني لست هادئةً، بداخلي ثورة تملأ العالم.. أنت تعلم ذلك.. أوجعتني نظرتها لي.. كنت أظن أن أمي تراني أفضلهن، ولكن وجدتُني أقلَّ من أيِّ أحدٍ.. حتى أمي وجدَتْني معاقةً.. تُرى هل أنا كذلك!!

ظلال دمية

طوى «عامر» ذاك الدفتر السوداء سطوره وأغمض عينيه على تلك الكلمات وعاد بذاكرته إلى تلك الأيام



يحاول أن يعيد ذكراها في عقله من جديد فأفاق على صوت أمه وهي تنقر على باب غرفته قائلة:

- مش هتاكل؟!

أجابها في تثاقل أنه سوف يلحق بها، بدَّل ملابسه وخرج لها وهو يمسك بكتابات «بيان» بين يديه قائلًا:

- علشان كده قولتيلي أسامحك؟! طب على إيه!!، كلنا طلعنا مذنبين.

لم تُجبه بل اكتفت بالصمت وهي تحاول أن تختبئ من عينيه ثم أردف قائلًا:

- انتي قريتيه كله ؟

أومأت بنعم ثم سحبت الصغير من يده ودلفت إلى غرفتها وتركته يُقلِّب في طبق الطعام في رتابة لا يستطيع حتى أن يتناول شيئًا منه فتركه جامدًا وأسلم نفسه إلى هاتفه ليكتب على حائط حسابه الشخصي:

«تصدمنا الحقيقة وتحرقنا مثل أشعة الشمس.. ولكننا نعلم معها أننا أذنبنا حين ركنّا إلى الظل وأبينا أن نراها».

قرأتها على الفور «أمل» التي لم تكن لتفارق هاتفها تقلِّب في صفحتها وترقب دخول «عامر» إلى ذاك العالم الافتراضي فكعادتها عبَّرت عن حزنها بما كتبه بـ «أحزنني».. وهي تحدِّث نفسها:

«أي حقيقة ممكن توجع أكتر يا عامر.. اللي انت فيه واللا اللي لسه هقولهولك!!»

* * *

14

(أمواج البحر)

توقعاتنا عن الآخرين قاتلة.. ليتنا نستطيع تخفيضها حتى لا يصدمنا ارتطامنا بها ذات يوم».

جاء الموعد المرتقب بعدما اتفق الاثنان عليه قبيل عمل «عامر» الذي كان يبدأ في الظهيرة وينتهي منه الثالثة فجرًا.. استيقظ من نومِه على اتصالٍ من «أمل» بعد أن جاهدَ ليظفر بالنوم الذي كان ثقيلًا عليه في أن يبحث عنه بين ظلال الضوضاء التي خيَّمَتْ على رأسِهِ. ارتدى ملابسه على عجلٍ والتقيا على شاطئ البحر، وقف كلٌّ منهما ينظر إلى أمواج البحر المتلاحقة في هذا الشتاء القارص يبحثان عن كلماتٍ يبدآ بها حديثهما.. كانت «أمل» صاحبة المبادرة وقطعت ضجيج الأمواج بصوتها الرقيق قائلة:

- «عامر»، أنا بحبك.. إنت عارف ده، لكن النهارده كلامي مش عن حبي ليك على أدّ ما هقولهالك عشان



نفسي أقولها ليك.. عشان ماليش غيرك أقولّه اللي جوايا، عارفة إن جوّاك كتير وده مش الوقت المناسب عشان أشيّلك حمل فوق حملك.. أنا عايزة بس تسمعني زي ما بتسمعني دايمًا.

قاطعها «عامر» قائلًا:

- سيبك من الحمل اللي أنا شايله.. انتي عارفة إني بسمعك ومش بتضايق من كلامك.

بعد أن كانت تنظر إليه عادت بعينيها إلى البحر الهائج الذي تظلله سماءٌ غائمةٌ، جلست على الأرض غير مبالية بالتصاق حبات الرمل المبتلة بملابسها؛ فجلس بجانبها «عامر» وانسابت الكلمات منها بلا حساب قائلة:

- بابا لما مات كان عمري سبَعْ سنين، كانت أول مرة أعرف يعني إيه موت وإزاي اتّاخد منّي الأمان في لحظة، ماكنتش عارفة يعني إيه، بس حسيت وقتها إني طايرة في الهوا بتخبط في كل حاجة وماليش



ملجأ.. بعدها بسنة فاجئتني أمي إنها عايزة تتجوز، ماكنتش قادرة أفهم هي عايزة تتجوز ليه، ما وافقتِش وبرضو مارفضتش، يمكن علشان ماكانش ليَّ رأي، ولكن كان الرفض وقتها من جدتي أم بابا واشترطْت عليها عشان تتجوز تاخَدني منها كانت بتهددها بس أمي مافهمتش كده، وبالفعل أمي اتخلت عنِّي ورُحت أعيش مع جدتي، كانت بتيجي أمي تزورني كل فترة، وفي كل مرة كانت المشاكل بتزيد بينها وبين جدتي، وبقت بتزيد الفجوة بيني وبين أمي في نفس الوقت، وقتها حسيت إني يتيمة والإحساس ده كان بيمتلكني، كنت من غير أب ولا أم ولا بيت وماعنديش غير يادوب المكان اللي بنام فيه جنب جدتي، كبِرت وكبِرت غلطاتي معايا في البيت ده.. بقى جوايا تضارُب كبير، حاسة بغضب دايمًا بسبب أمي اللي فضَّلت عليَّ راجل تعيش في حضنه.. مع إن أنا كمان كنت دايمًا بدوَّر على راجل يحتويني في كل التخبطات اللي أنا عايشة فيها دي..



صمتت لحظة تنظر إلى وجه عامر لترى أثر كلماتها عليه، ولكنه لم ينظر لها حتى تستكمل حديثها بلا حرج فأكملت:

- فضِلت عايشة مع جدتى لحد ما بقى سني 17 سنة.. 9 سنين من عمري معاها.. مش هكدب عليك وكنت أتمنى إني أقدر أكذب بس النهارده أنا جتلك ومش هكذب زي ما كنت بكذب طول السنين اللي فاتوا من حياتي.. كنت دايمًا بقبل بأي شاب تجمعني بيه الظروف؛ بدوَّر جواه على اللي اتحرمت منه، لكن مالقتش أي حاجة غير إني حسيت إني اتوسخت من جوايا، كلهم كانوا عايزين جسم البنت اللي بتجري ورا كلام الحب اللي بيقولوه لها.. عرفِت أمي اللي كنت بعمله من حد جارنا، جَت لي وقتها عند جدتي واتخانقت معايا وهددتني إنها هتمنعني من الدراسة، لكن ولا كان فارق معايا كلامها، وقفت أي حاجة كنت بعملها عشان مليت وتعبت من نفسي.. بس ما اتوقفتش كتير، يادوب بس السنة الأخيرة في الثانوية

العامة وبعدها ماتت جدتي ورجِعْت لبيت أمي وجوزها مع أول سنة ليَّ في الجامعة.

أخذَتْ أنفاسًا عميقة من قلبها وكأن الهواء الذي بداخل رئتيها تسرَّب فعبَّت من هواء البحر من جديدٍ حتى لا تشعر باحتضار روحها، ونظرت مباشرة في عيني «عامر» الذي كان ينظر إليها في ذهولٍ ثم قالت:

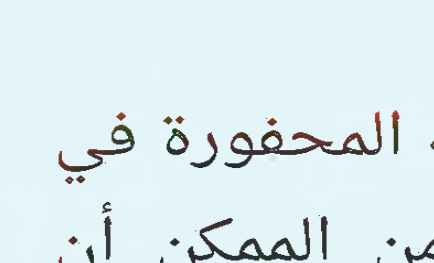
- إستنى متحكمش ارجوك.. اسمعني للنهاية.

أجابها والأفكار تتضارب بداخل عقلِه وعاد ينظر للبحر من أمامه قائلاً:

- مش بحكم عليكِ، مستنيكِ تكملي.

قالت مهدئة من أنفاسها:

- مابقتش المشكلة في غلطات الطفولة اللي كنت بعملها.. ماكنتش أنا بس اللي بَغْلَط، هُمَّا كمان كانوا بيغلطوا.. أنا ما آذِتش حد غير نفسي.. لكن كُلُّهم آذوني وأولهم أمي.



نبشت كلمات «أمل» على كلمات «بيان» المحفورة في عقله.. وبدأ في التساؤل.. تُرى هل من الممكن أن يكون مصير «أمل» مثل «بيان» – الجنون -، هل أمي مذنبة أيضًا!

مَن المذنب؟ نحن بإدراكنا للذنب أم أنَّ الذنب له وجه واحد.. كانت «أمل» تُكمِل قصتها في غياب عقل عامر، يسمع كلماتها من بعيدٍ كضجيج البحر إلى أن أخذه صوتها وهي تبكي قائلة:

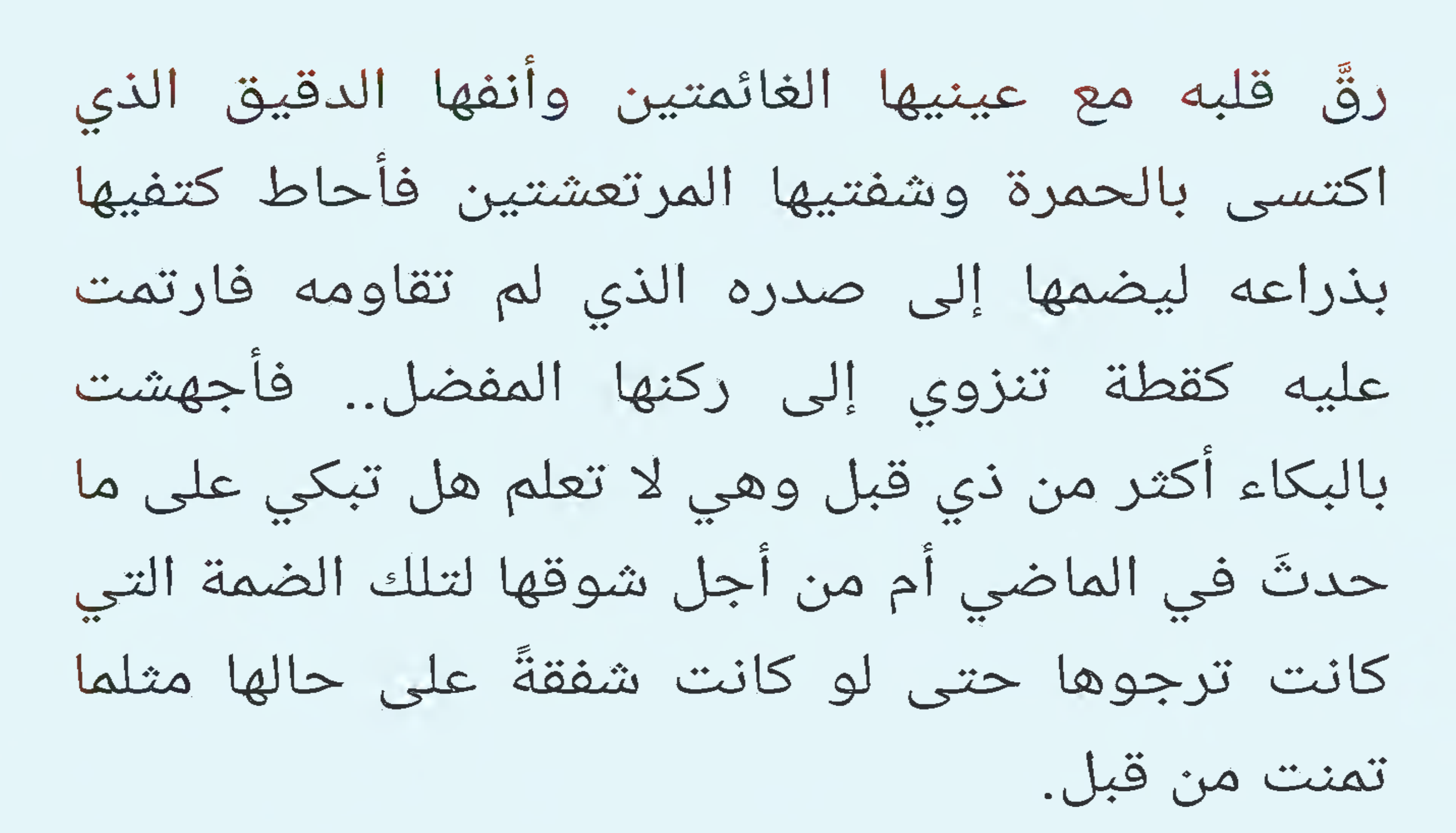
- ماحستش بيه إلا وإيده على جسمى بالليل وأنا نايمة في سريري.

انتفض من كلماتها سائلاً:

- مين؟!

أجابت وهي لا تزال تبكي كعاصفة هوجاء متضاربة أمطارها قائلة:

- جوز أمي..



رقَّ قلبه مع عينيها الغائمتين وأنفها الدقيق الذي اكتسى بالحمرة وشفتيها المرتعشتين فأحاط كتفيها بذراعه ليضمها إلى صدره الذي لم تقاومه فارتمت عليه كقطة تنزوي إلى ركنها المفضل.. فأجهشت بالبكاء أكثر من ذي قبل وهي لا تعلم هل تبكي على ما حدثَ في الماضي أم من أجل شوقها لتلك الضمة التي كانت ترجوها حتى لو كانت شفقةً على حالها مثلما تمنت من قبل.

حاولت استكمال قصتها التي جاءت من أجلها على صدره، ولكنه قال لها أن تكتفي الآن من الحديث وتهدأ قائلًا لها:

- أنا جنبك ماتقلقيش.. إهدي دلوقتِ وبعدين نكمل كلامنا.

قبَّلها على جبينها المرتكن على صدره قبلةً حانيةً.. فتمنت لو أكملت حديثها لكي ترتاح منه، ولكنها استسلمت لسماع دقات قلبه المتسارعة فهدأ وجيب قلبها، إجلالًا لدقات قلب «عامر» الذي كان قلبه وعقله



في صراع مرير على ما يحدث، وكُلٌّ منهما يُخبر الآخر جملةً واحدةً تاه معها عامر.. كان مفادها (كُفّ عما تفعل).

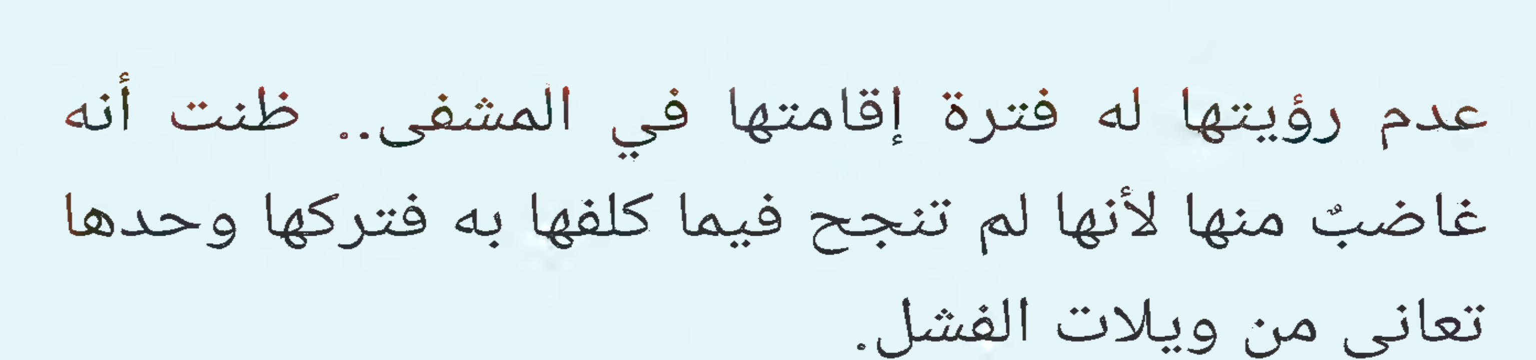
* * *

15

(وِحدة)

تتلاطم الأفكار في بحر عقولنا فلا نجد سبيلاً إلا الغرق في القاع فنظنه الخلاص فنزداد غرقًا.

الوحدة التي كانت بها «بيان» أكبر مما كانت تشعر فيما قبل.. أُناس غرباء تائهون تجلس بينهم، تتناول دواءها عنوة ولا تزال الجلسات الكهربائية تسيطر على عقلها بلا رحمة، حديثها الداخلي لا يزال يتأرجح بين الصحوة والغفوة.. كان لغياب قلمها ودفترها عنها أثرٌ في نفسها فآثرت أن تحدث روحها بما يختلج به عقلها، استندت على ظهر فراشها الخشبي في تململ ولسان عقلها يلهج بحديث افتقدت أن تكتبه على سطورها.. نظرت في سقف العنبر الذي تنامُ فيه وكأنها تبحث عنه بين طيات الطلاء الباهت، تساءلَتْ: هل لا يزال موجودًا.. كان سؤالاً هزليًا؛ فقد كانت تعلم أنه لن يفارقها، وأنه الوحيد الذي يريدها أفضل مما قبل.. هو الوحيد الذي اهتم لأمرها، ظلَّ عقلها تائهًا معه برغم



عدم رؤيتها له فترة إقامتها في المشفى.. ظنت أنه غاضبٌ منها لأنها لم تنجح فيما كلفها به فتركها وحدها تعاني من ويلات الفشل.

جاءتها الممرضة لتسحبها كما تُسحَب الشاة للقاء الطبيب، لم يكن بها طاقة للعناد فاستسلمت لسحبها من ذراعها لتجد الطبيب في انتظارها، جلست وعيناه تتفحصانها ثم أمسك بقلمه وظلَّ يدوِّن ملاحظاته.. وجد عينيها لا تفارقان قلمًا حبرًا أسودَ ملقى بإهمالٍ على المكتب؛ فأمسك به ومد به لها مشيرًا على ورقة وهو يسألها:

- إيه رأيك تكتبي؟

قامت من على كرسيها وهي تقترب في حذرٍ لتتأمل القلم وسحبت الورقة أمامها، هو أيضًا سحبَ ورقةً وكتب عليها

- دلوقتِ نقدر نتواصل سوا.. أنا الدكتور عماد الوكيل.. إزيك؟

قدَّم لها الورقه فقرأتها بصعوبة ليس لرداءة خط الطبيب ولكن لصعوبة استيعابها للكلمات ثم كتبت:

- ظِلال دُمية..

قرأها بدون أن يُبدي أي ردة فعل ثم كتب:

- فين الظلال دي يا «بيان»؟

غابت كثيرًا وهي تقرأ ما كتب ثم كتبت:

- هي مُذنبة.. صح؟

كتب لها في سرعة

- مين هي المُذنبة.. «بيان» !!

حركت رأسها يمينًا ويسارًا كإشارة عن الرفض، ثم كتبت.

- الدمية.. مذنبة..

كتب لها سريعًا:

- عمَلِت إيه علشان تكون مذنبة؟؟ خلِّفِت آدم؟

أجابت بعد برهة من الوقت فكتبت:

- أنا تعبانة.. عاوزة أمشي.. دلوقت ميعاد الغدا.

أومأ برأسِه ثم كتب:

- أنا عارف أنك تعبانة.. لما هيجي وقت الغدا هسيبك تروحي.. إحكيلي بقى عمَلِت إيه؟؟

كتبَتْ في تَملمُل قائلة:

- مش فاكرة.

حاول أن يجعلها تكتب لتساعده على معرفة ما بداخلها، ولكنها رفضت.. وأشارت بيدها أن يكتفي بتلك الأسئلة ويتركها لكي تذهب، تشبثت بالقلم فأمسك بيدها سائلًا إياها وهو يشير بيده:

- عاوزة تخليه معاكِ؟؟



أومأت مؤكدة على إشاراته لها.. أعطاها مع القلم بعض الأوراق ثم بعث ينادي على الممرضة لتصحبها إلى عنبرها مؤكدًا عليها أن تبقى تحت ملاحظتها، وأن تأخذ منها القلم في الليل تَحسُّبًا لأي محاولة للانتحار، تركته وذهبت فجلس على كرسيه ليكتب ملاحظة:

«لا تزال تحت تأثير جلسة الكهرباء، عقلُها مشوش، ولكنها لم ترفض طريقة التواصل بيننا».

ثم عاد لبقية حالاته التي عليه أن يلاحظها.

***

افترق «عامر» وأمل بعد أن فاض كيل الأخيرة بمكنوناتِها وإن كانت لم تفرغ كل ما في جعبتها بعد، ذهب هو إلى عمله وفي رأسه ألف ألف فكرة يحاول أن يهزمها، ولكنه لم يستطع.. عند مفترق الطرق قبل أن تذهب إلى منزلها أمسكت بيده بلا خجل من المارة حولهما قائلة:

- أنا بحبك.. ماتسِنيش.

أجابها وهو يتلفت حوله خشيةً أن يراهما أحدٌ ساحبًا يده من بين أطراف أصابعها الصغيرة قائلاً:

- ماتقلقيش مش هسيبك.. روَّحي انتي دلوقت.

سألته في لهفة

- بتحبني؟!

أجابها مراوغًا:

- جايز لو قرَّبتِ أكتر منِّي ماتحبنيش، جايز ما أكونش الشخص اللي يستحق حُبِّك ده.

- لكن مش دي الإجابة اللي المفروض أسمعها منك!!

- هكلمك أما أرجع.

تركها وتوجَّه إلى عمله محاولًا نسيان ما حدثَ أو قيل.. مؤنِّبًا نفسه على احتضانه لها خوفًا من أن يكون قد أعطاها وعدًا مجهولاً تضع له هي عنوانًا يناسب أمنياتها فيه، أما «أمل» فعادت تحمل أكثر مما رمت

عن كاهلها وبدأت الأسئلة تتقافز أمام عينيها وهي مثبتة ناظريها على ظهر «عامر» الذي بدأ يتلاشى من أمامها ليصبح كنقطةٍ في الفراغ فمضت إلى سبيلها وهي تهمس في خفوت: (ليه دايمًا لازم تحيَّرني يا عامر؟ ليه الأمور ماتكونش بسيطة، ليه دايمًا عاوز تعقَّد كل حاجة مع إن الموضوع).. انتبهت أنها بدأت تسير وسط الناس فاكتفت بالصمت لحين عودتها المنزل.

لم تستغرق العشر دقائق حتى وصلت وما إن دلفت إلى منزلها حتى رمقتها أمها بنظرة متسائلة؛ فتجاهلتها ودخلت غرفتها في صمت، أمسكت هاتفها وكتبت رسالة إلى «عامر» لتطمئنه أنها وصلت المنزل وأنها تنتظره في الليل كما وعدها.

ليست كل الوعود نستطيع أن نفي بها.. هناك مواثيقُ أخذناها على أنفسنا أكبر من أن ننفذها، أكبر من طاقة احتمالنا، نظن أننا نستطيع ونأمل في أن نفعل، ولكن هناك أشياء بداخلنا تمنعنا من الوفاء.. هو حِملٌ ثقيلٌ

لا يقدِر عليه سوى الصادقين مع أنفسِهم أولًا قبل أن يكونوا مع الآخرين.

مرت ساعات النهار كمسيرة يوم في شمس حارقة.. أنفاس لاهثة وملل من عقارب الساعة التي تتحرك في رتابة قاتلة، يمضي الوقت سريعًا عندما لا نريده أن يتركنا وحدنا ويرحل.. وعندما نريده يُسرِع في مغادرتنا يمكث رابضًا على قلوبِنا ويجثم على أنفاسنا فنختنق به ولا نملك سوى أن نرضى بثِقله وننتظر.

كان انتظار «أمل» قاسيًا على نفسِها تُفكِّر: تُرى هل سيصدقها «عامر» أم أنه سيفعل مثلما فعلت أمها.. وربما إن تهاجمها تلك الأفكار حتى تطردها سريعًا مبرِّرَةً أنه لا يمكن أن يكون مثل أمها فلا مصلحة له في ذلك.. لمَ لا يُصدِّقها، لقد أقسمَتْ له إن حتى أخطاءها لم تتعدَّ لقاءاتٍ عابرةً مع أيٍّ مِمَّن عرفَتْهُم، ثم تعود من جديدٍ.. ربما يظن أنها تُلقي بنفسها في طريقه من أجل ما قالته، ثم تعود تجيب على أفكارها.. ولمَ عليه أن يفكر هكذا هو يَعلم أنها تحبه وتعتقد أنه أيضًا يُحبها وإلا ما كان ضمها تلك الضمة

الحانية التي شَعرت بها.. وظلت على تلك الحالة تتساءل وتضع إجاباتٍ تريح عقلها من حيرته فاتخذت قرارًا بألَّا تنتظر موعدها معه في الليل وتكتب له بقيةَ ما حدثَ ويطوق عنقها فتكاد تختنق به لتشرح موقفها كاملًا حتى لا يسيء فهمها.

نُجيد الدفاع عن أنفسنا لأننا دومًا نراها خلف قضبان الاتهام.. نرى الأصابع ممتدةً تشير إلينا في هجوم فنتخذ المبررات دِرعًا ليحمي صدورنا من النظرات التي تُطلِق الأحكامَ علينا فتردينا قَتلى، فنظَلُّ ندافع حتى الموت ونحن نرى أنفسنا مذنبين في عيونِ الآخرين وفي عين أنفسنا.

* * *

16

(قلبي يُحدِّثُني)

هناك لقاء يحيينا بعد الموت.. وهناك آخر يميتنا بعد الحياة.

انتهت ساعات عمل «عامر» وهو يحاول أن يبذُل أقصى جهد في طاقته حتى لا يعطي فرصة لعقلة في أن يفتح أبوابه لأفكاره.. نظر في هاتفه الذي تجاهله تمامًا فوجد العديد من الرسائل كان منها رسالة من «وليد» أنه ينتظره في الصيدلية ويؤكد عليه أن يمر عليه في طريق عودتِه، ووجد رسالتين من «أمل» ولكنه وجد واحدة منها طويلة ففتحها ليقرأ ما كتبت بدأت كلماتها بـ:

«أنا آسفة ماقدرتش أستنى أما تكلمني علشان أحكيلك باقي الحمل اللي جوايا، أتمنى تصدقني في اللي هقولهولك دلوقتي.. كنت أتمنى أشوفك تاني عشان أحكيلك باقي حكايتي.. كنت قولتلك إن كان بيني

وبين أكتر من حد علاقة.. تقدر تسميها كنت بلعب بس اكتشفت إني كنت بلعب بمشاعري أنا.. آه حبيت قبل كده لكن هو ماحبنيش كل اللي كان عايزه جسمي باسم الحب.. بس ماتقلقش ماخلتوش يوصل للي هو عايزه.. كنت دايمًا بحاول أبعد عنه وهو كان مُصِر يقرَّب ويقنعني برغباته تحت اسم الحب.. واللّه ماحصل حاجة بيني وبينه وبعِدت عنه فعلاً واتعذبت وأنا بعيدة عنه عشان حسيت إني رخيصة، وإني كنت بالنسبة له جسم وبس.. كل ده حصل قبل ما أتصدم بتحرش جوز أمي ليَّ.. ولما حصل ده الخوف سيطر عليَّ ومابقتش عارفة أقول إيه ومثلت إني نايمة، وكان دايمًا القدَر هو اللي بينقذني منه.. أوقات أمي تصحى من النوم فيسمع صوت باب أوضتها فيجري عشان ماتشوفهوش.. 3 مرات يحاول إنه يعريني ويكشف الغطا من عليَّ، ولما زوِّدها في لمسته ليَّ صرخت في وشه.. وماعرفتش أمي جت منين ولقيتها فجأة قُدَّامي.. فضلِت تزعق وما استنتش تسمعنى وبدأت توجِّهلي أنا الاتهامات.. فبدل ما تبقى منقذة ليَّ خلتني أنا المذنبة.. تخيل إنها كانت دايمًا بتراقب

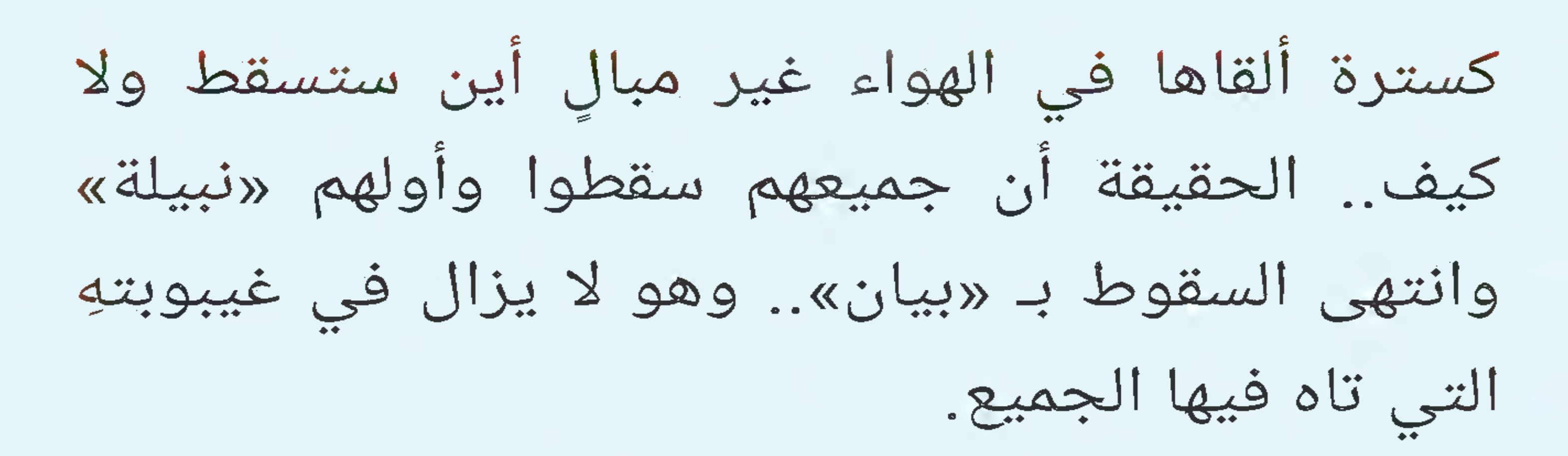
المواقف من بعيد من ساعة ما جيت أعيش معاها؟ لدرجة إنها فكرت إن أنا اللي بستدرجه.. هيَّ اللي قالتلي كده.. فضِلت أحلفلها إني كنت خايفة أتكلم وأحكي، لكن ماصدقتنيش.. اتخانقوا مع بعض، وبعدها حاول هو يراضيها بس فضلت تبصلي بحقد.. حاولت أشرحلها كل حاجة بعد ما هديت شوية فلقيتها بتهاجمني وتقولي انتي رخيصة.. ساعتها مابقتش قادرة أصدق اللي بتقولهولى وفضلِت تسألني عن إني لسه بنت ولا حصل حاجة وفقَدْت عذريتي مع أي واحد من اللي عرفتهم.. سكتّ وماردتش عليها لقيتها بتزيد أكتر وتقولي إن جوزها عارف كل حاجة عني، وإن ممكن يكون عرف من حد من اللي عرفتهم إني مابقتش بنت فعشان كده كان بيحاول معايا لأني صِيدة سهلة.. حاولت أدافع عن نفسي بإن لما هي دخلت علينا كنت بهدومي وإن ماحصلش منِّي حاجة مع الحيوان جوزها بس برضو ماصدَّقِتش وفضلِت تحُط احتمالات أكتر وأكتر.. وبقى كل همها إنها تتخلص منِّي وتجوّزني.. عارف بقى هي عايزة تجوزني مين؟ إنت يا «عامر» وإنك تبقى مجرد زوج،

بس أنا عايزاك مش بس عشان تبقى مجرد زوج لكن عشان بحبك.. مش هتكسف وأنا بقولك الكلام ده كله عشان نِفسي أرتاح.. أنا موجوعة أوي، وكل يوم الوجع بيزيد جوايا يوم بعد يوم ومش قادرة أغفر لنفسي ولا لأي حد آذاني.. فياترى هَتقدر تعلمني أغفر؟!»

انتهى «عامر» من قراءة الرسالة وهو يمشي بتمهل في طريقه إلى منزله وأجابها بلسان حاله:

«إزاي أعلمك المغفرة وأنا مش عارف أغفر!»

هل فاقد الشيء يعطيه حقًا.. هل الحرمان يجلب العطاء، لم يكن «عامر» يمتلك الغفران الذي تطالبه به أمل، لو كان في قلبه لغفر لأبيه الذي تمنى يومًا أن يهجرهم أفضل من وجوده الغائب، لم يُظهر أبوّتَه في تلك الأيام الماضية وكأنه ضيف لا يعنيه شيئًا مما يحدث في هذا المنزل، هل يستطيع الابن أن يغفر لأبيه عدم أبوَّتِه.. هل يستطيع أن يلتمس له عذرًا ما، ولكنه بحث بداخله عن أعذارٍ لم يَجد سببًا يجعل أبًا يتخلى عن واجبه وكأنَّ عبءَ تلك الأسرة خلعه عنه



كسترة ألقاها في الهواء غير مبالٍ أين ستسقط ولا كيف.. الحقيقة أن جميعهم سقطوا وأولهم «نبيلة» وانتهى السقوط بـ «بيان».. وهو لا يزال في غيبوبتهِ التي تاه فيها الجميع.

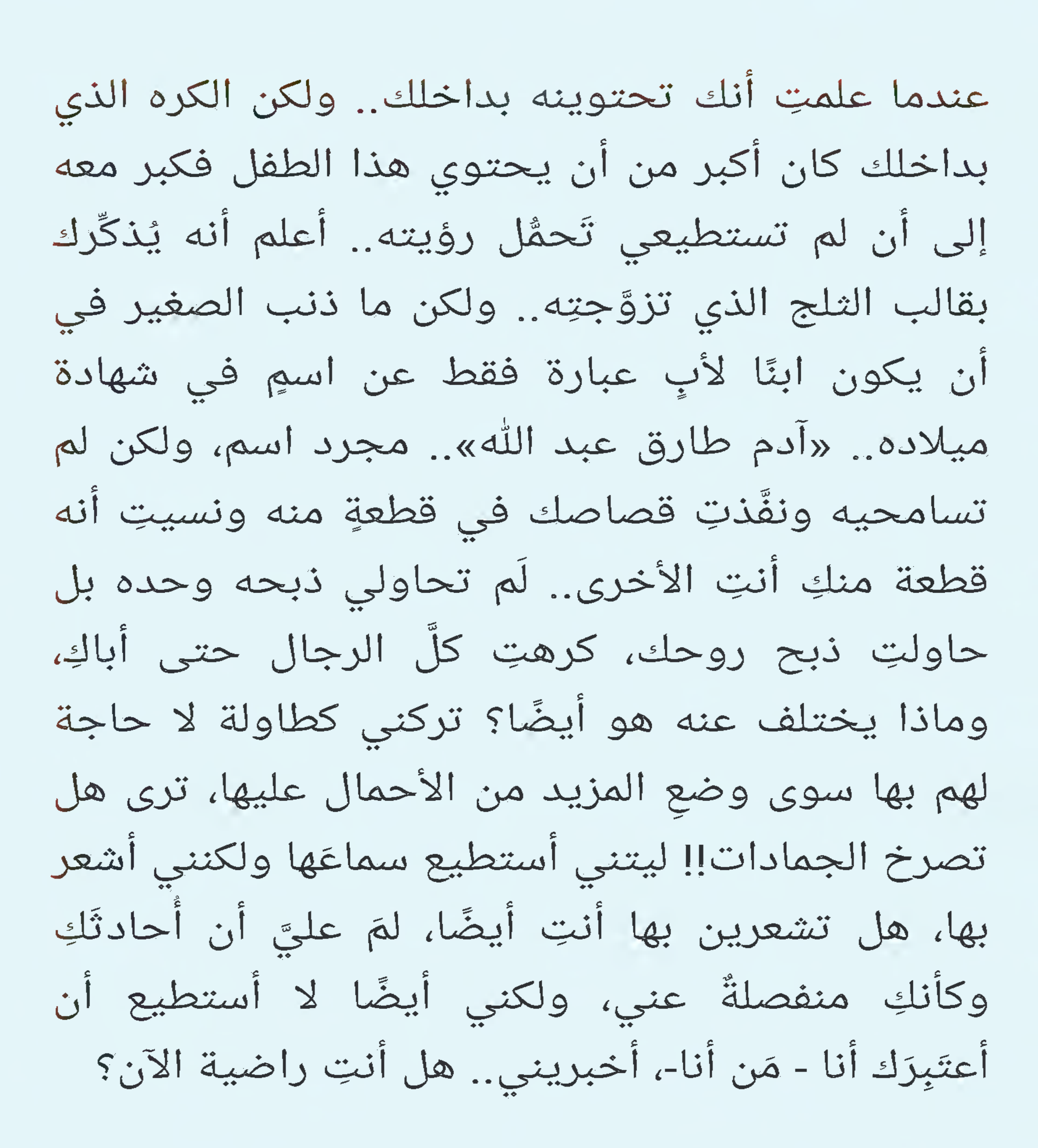
***

يَكبر الوجع بداخلنا كطفلٍ صغيرٍ يتعلَّم المشي فيدب أرجله في جدران قلوبنا ويتشبث بأصابعه فينا إلى أن تحفر أظفاره وديانًا من الألم في أروحنا فيكبر أكثر ونظن أنه مع الوقت سيتلاشى فإذا به في غفلةٍ من الزمن يُصبِح كبيرًا ليغطي حتى على أيِّ فرصةٍ لنا في أن نحيا بدونه.. لأنه قد أصبحَ كُلَّ ما فينا.

كانت «بيان» تحاول أن تتجاوز عملاقَ الوجع الذي احتوى كُلَّ جزءٍ فيها، أمسكَتْ بالقلم والورقة وكتبت:

رسالة إلى ظلال دمية

لا أعلم كيف فعلتِ ذلك.. كيف تحاولين قتل ابنك الوحيد، إنه ابنُكِ، قطعةٌ منكِ، هل نسيتِ كيف فرحتِ



عندما علمتِ أنك تحتوينه بداخلك.. ولكن الكره الذي بداخلك كان أكبر من أن يحتوي هذا الطفل فكبر معه إلى أن لم تستطيعي تَحمُّل رؤيته.. أعلم أنه يُذكِّرك بقالب الثلج الذي تزوَّجتِه.. ولكن ما ذنب الصغير في أن يكون ابنًا لأبٍ عبارة فقط عن اسمٍ في شهادة ميلاده.. «آدم طارق عبد الله».. مجرد اسم، ولكن لم تسامحيه ونفَّذتِ قصاصك في قطعةٍ منه ونسيتِ أنه قطعة منكِ أنتِ الأخرى.. لَم تحاولي ذبحه وحده بل حاولتِ ذبح روحك، كرهتِ كلَّ الرجال حتى أباكِ، وماذا يختلف عنه هو أيضًا؟ تركني كطاولة لا حاجة لهم بها سوى وضعِ المزيد من الأحمال عليها، ترى هل تصرخ الجمادات!! ليتني أستطيع سماعَها ولكنني أشعر بها، هل تشعرين بها أنتِ أيضًا، لمَ عليَّ أن أُحادثَكِ وكأنكِ منفصلةٌ عني، ولكني أيضًا لا أستطيع أن أعتَبِرَك أنا - مَن أنا- أخبريني.. هل أنتِ راضية الآن؟

«بيان»

***

كتب «عامر» رسالة إلى «وليد» قائلاً فيها أنه سوف يمر عليه في الغدِ لأنه مُتعبٌ حَدَّ الموت الآن، ولكن كانت «أمل» تحترق كلما مَرَّ الوقت على قراءة «عامر» لرسالتها بدون أن يكتب لها حرفًا فهاتفته سريعًا فلم يجبها، وكتب لها كلماتٍ فقيرةً قائلاً: «مش قادر أتكلم دلوقت.. هنام وبكرة هكلمك».

هكذا جاءتها كلماته، لم يترك لها حتى مجالًا في أن تَرُدَّ عليه بأيِّ كَلمةٍ، خرج من حسابه في دقيقة وتركها تكتوي بنار البوح والخوف فكتب على حائطها وهي تشعر بالحزن يحتضنها وكأنه يريد أن يُخبرها أن لا ملجأ لها سواه:

قلبي يحدثني بأنك متلفي

روحي فداك عرفت أم لم تعرف

ما لي سوى روحي.. وباذلٌ نفسَهُ

في حُبِّ من يهواه ليسَ بِمسرفِ

فالعين تهوى صورة الحسن التي

روحي بها تصبو إلى معنى خفي

ما للنوى ذَنبٌ ومن أهوى معي

إن غاب عن إنسان عيني فهو فيَّ

فالوجد باقٍ.. والوصال مماطلي

والصبر فانٍ.. واللقاء مسوفي

كتبت تلك الكلمات ثم أغمضت عينيها على دمعٍ ساخنٍ يُغلِّفهما بسخاء لعلها تستطيع نسيانَ ما آلت إليه نفسها باعترافها الموجع. لم تستطع أن تمنع جلادها من أن يسقط بسوطِه على جسدها ويؤنبها ألف مرة كيف تعترف بكل ما حدثَ لها بكل هذه البساطة، لم تستطع أن توقف نزف الأفكار الذي يتسلل إليها ولا كيف سيفكر بها عامر، هل سيصدقها.. بل هل هي تُصدِّق نفسَها.!!

* * *

(17

(بين الإدراك وفقدان الواقع)

هناك مرحلة فاصلة بين الشيء واللا شيءَ، نقف بينهما حائرين تُرَى هل نحن هنا أم هناك ومع هذا التيه نفقد أنفسنا إلى أن يَحين موعد اللقاء.

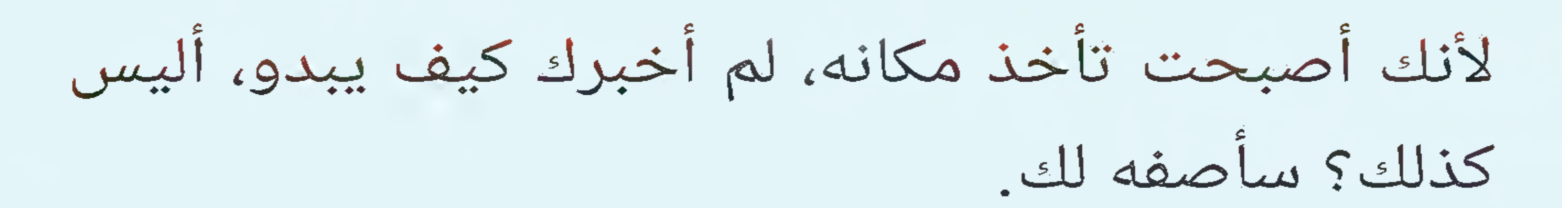
مر أسبوعان على وجود «بيان» في المشفى، ولا يزال الدكتور عماد يتابع ما تكتب من رسائل في الأوراق التي أمَّدها بها في عنبرها الجماعي التي تُحتجَز فيه، بعدما كانت مُستسلمة للعقاقير لتفعل بها ما تشاء.. أخرجها من حالتها بجلساته معها والرسائل التي أصبحت الآن تَكتبُها له بدلًا من اللا شيء.. كانت لا تزال رحلتها للعودة من انفصالها عن الواقع إليه ممتدةً، ولكن كان يجب عليه أن يجعلها تستعيد واقعها من جديدٍ حتى ولو كان به.

جلس بمكتبه يطالع رسائلها في هدوءٍ.. وبرغم ما كان في الرسائل إلى أنه سَعد عندما وجدها تكتب إليه

بالاسم بعدما أخبرته في جلسة من الجلسات أنها تُريد أن تخرج من هذا المكان وتقصد به المستشفى؛ فأخبرها أنها يجب أن تتعاون معه لكي يحدث ذلك. استغل حبها للكتابه استغلالاً محمودًا لكي يعلم ما يجول بداخل سجن الصمت الذي تعيش فيه، تجاهل سؤالها عنه في رسائلها، ولكنه وجدها تجاوب عن السؤال فيما قرأ.. كتبت رسالة بعنوان:

أعلم أين يكون

«سألتُكَ كثيرًا أين يوجد المؤنب الذي لطالما سألتني مَن هو.. وأجبتُكَ أنه مَن يقف أمامي في صحوي ونومي ويأمرني بأن أفعل ولا أفعل حتى طعامي كان يخبرني ما الذي يجب أن أتناوله.. اليوم أريد أن أتحدث عنه مليًا بعدما علمت أنه بداخلي، نعم إنه بداخلي؛ سأجيب عن سؤالي بعدما وجدتُه يصغر يومًا بعد يوم.. إنه يسكن في أعماقي أراه بعيدًا.. بعيدًا جدًّا ولكنه لا يزال موجودًا.. هو من أشعرَني بأهميتي في تلك الحياة؛ اهتم لأمري مثلما تفعل أنت وربما تضاءل


لأنك أصبحت تأخذ مكانه، لم أخبرك كيف يبدو، أليس كذلك؟ سأصفه لك.

هو ضخمٌ بالنسبة لي ولكنني كنت أراه كذلك مهما ابتعدت المسافة بيننا ـ كنت أراه قريبًا منِّي، عيناه تخترقانني أراهما قريبتين لدرجة أنهما تنفصلان عن وجهه.. عندما يمد يده إليَّ أجدها تستطيل، أحيانًا كنت أخاف أن تطبق يده على عنقي ولكنه كان يفعلها فقط ليعنِّفني، ولكنه لم يكن ليقتلني، كنت أتعمد أحيانًا إغضابه ولكنه جعلني أتراجع عن فعل ذلك عندما كان يتفكك كل جزء منه في اتجاه فاضطررت أن أطيعه ولا أعصى له أمرًا بعد ذلك.. عندما سألتَنْي هل هو الذي أخبرني باسمه.. لم أُجِبْكَ لأنني أنا من أطلَقتُ عليه هذا الاسم هو لم يخبرني بشيءٍ.. كنت خائفة من ألا تُصدِّق في وجوده.. مهما أقسمتُ لك إنه كان موجودًا لن تُصدقني لأنني أعلم أنه في الهواء يتجمع وتتفتت جزيئاته في يُسرٍ وسلاسة.. أرجوك أن تُصدقني الآنَ، تُرى هل هو غاضبٌ منِّي لأنني أُحدِّثك الآن؟ أراه بداخلي غيرَ مُبالٍ، ولكني لا زلت أرى ظِلَّه

الغامضَ ونظرته التي تخبرني بالكثير، ولكنني لا أستطيع تفسيرها.. فهل تستطيع أنت الآن بعدما أخبرتُكَ بكُلِّ شيءٍ، أعلَمُ أنَّكَ أيضًا ترى ما بداخلي.. هل تراه مثلما أراهُ.. سأعلم منك في الجلسة المقبلة؛ لأنك لن تستطيع رؤيته إلا إذا كُنت أنا أمامك.. ولكنني سأنتظر تفسيرَكَ لما يحدث لي.. سأنتظر جلستي معك يا دكتور عماد.»

كان شيئًا جيد بالنسبة لعماد أن يعمِّق علاقته بمريضته «بيان» ويكتسب ثقتها، كانت أول حالة مِن نوعها يواجهها خلال الخمسة عشر عامًا في العلاج النفسي التي يواجه فيها حالة فُصام لصم وبكم.. لم يأتِ على باله كطبيبٍ نَفسيٍّ ومُعالج أن الصُم والبكم يمرضون.. عاتبَ نفسه ولمَ لا؟ أليسوا من البشر وجميعنا ريثما وجدنا على خط السواء فنحن على درجة من درجات المرض، تلك النظرية التي تحمل المعنيين؛ الأسوياء والمرضى، وأن جميعنا على تلك الخطوط المُدرَجة من الممكن أن نثبت على درجة منها، ولكن ذلك لا يعني أننا أسوياء بشكلٍ كاملٍ، كانت حالة «بيان» بالنسبة له

تحديًا كبيرًا؛ فهي الخرساء والصماء وهو الذي لا يعلم لغة الصم والبكم ولم يفكر يومًا في أن يتعلمها فلم يكن ليجول في رأسه أنه سيُعالج حالة نادرة من الفصام؛ فأغلب المرضى الذين يحتلون ستين بالمائة من المستشفى من الفصَامين الذين تواجههم هلاوس سمعية ولم يواجه حالة هلاوس بصرية من قبل وكأن العقل يُهيئ المناسب لبيان لأنها صماء..! قرأ بالفعل عن حالة فصامية نادرة ترى الهلاوس ولكنها كانت أيضًا تسمعها فلم يتحير ولكن «بيان» هي مَن حيرته وأصابته بالاهتزاز من داخله عندما لم تُكن عندِه أدنى فكرة كيف سيتواصل معها، خرج من أفكاره ليحدد موعد جلسة لبيان في الغد ليتواصل مع أفكاراها المكتوبة ويفسر لها ما يجول بخاطرها.

***

ليس المرضى فقط مَن يفقدون واقعهم ويعيشون في الخيال، نحن أيضًا نفعل ذلك حتى ولو بالأمنيات والأحلام، نُصبح مرضى فقط عندما نتمادى فيها حتى نُصدقها وتفصلنا عن واقعنا ونظل فقط نعيش في

الأحلام غير مبالين بالأرض التي نقف عليها إن كانت رخوةً أم صلبةً.

هكذا كانت «نبيلة» تفكر عندما وجدت عقل «عامر» تائهًا؛ فعادت تعاتب نفسها كيف تركَتْهُ يفكر في كل شيءٍ وحده جلست تنتظر لحين عودته من عمله في الثالثة فجرًا وهو يحمل حقيبته الرياضية على كتفهِ وعلامات القلق باتت جلية على قسماته عندما وجدها مستيقظة إلى هذا الوقت.. هرول إليها سائلًا إياها:

- انتي كويسة يا أمي؟؟ إيه مصحيكِ لحد دلوقتِ!، ولّا فيكِ حاجة مخلياكِ مش عارفة تنامي؟

ربتت على كتفه لتطمئنه قائلة:

- لا مفيش حاجة.. إنت بس اللى شاغل دماغي، إنت كويس؟

أومأ برأسه وهو يجيبها بعد أن تنفس بتعب قائلاً:

- إمممم أنا بخير ماتقلقيش.



قالت له مُعاتبة:

- هتكدب عليّ وأنا في السن ده.. إنت ماعملتهاش وانت أصغر من كده، أنا قصَّرت معاك الكام يوم اللي فاتوا وماسألتكش عن عِلاج بيان، معلش يا ابني أنا عاملة زي اللى خد خبطة على دماغه ومش عارف هو فين ولا بيعمل إيه.

التفتت بجانبها لتجلب له مِنديلاً تضع فيه سلسلة من الذهب وخاتم زواجها وأمسكت بيده لتضعهم بداخلها قائلة:

- أنا مش عارفة تكاليف المستشفى إيه بس خُد الحاجات دى بيعها مابقتش محتاجاها خلاص، بيعها وهتكفي تكاليف المستشفى.

لم يلاحظ «عامر» عندما قبّل يدَ أمِّهِ في يدها أنها قد خلعت عنها الخاتم فقال لها:

- ماتقلقيش هشوف حل عشان أدفع باقي تكاليف المستشفى، خلي حاجتك معاكِ، أكيد فيه حل تاني

غير إننا نبيع دهبك.

أطرقت برأسها قليلًا ثم قالت:

- لو كان طليق أختك دفعلها حاجة من مؤخرها كان أكيد هيكفّي ولو حتى جزء من الفلوس المطلوبة.

جلس بجانبها واستند برأسه إلى ظهر الكرسي قائلاً:

- أمي.. مصاريف المستشفى 6 آلاف جنيه، أنا دفعت منهم ألفين استلفتهم من «وليد» صاحبي اللي انتي عارفاه.. وهتصرف في الـ 4 آلاف اللي باقين.

حزنت عندما علمت ذلك ثم عاتبته قائلة:

- ليه يا ابني عملت كده؟ تستلف كمان وأنا موجودة.. كنت قولّي ولّا فوّقني من اللي أنا فيه.

لم يجبها وظل ينظر إلى السقف ثم سألها:

- هو بابا فين.. أنا ماشُفتوش بقالي كام يوم، بتشوفيه؟!

وجمت قائلة:

- لسه مارجعش مابيجيش غير مع أذان الفجر، ومش عارفة إزاي بيتحمل البرد ده في سنه، اللي في سنه مابيخرجوش إلا عشان يصلوا.

أكمل على حديثها قائلًا:

- هو مايعرفش حاجة عن اللى احنا فيه، وهتنفعه بإيه الصلاة وهو السبب في كل اللي إحنا فيه ده..

ربتت على يده وهي تمسك بها ثم قالت:

- يمكن لما يصلي يتعلم إزاي يتقي ربنا فينا.. ربنا وحده هو اللي يملك قلبه يا ابني.

لم يقل شيئًا فعاجلته قائلة:

- إيه رايك تروح لطليق أختك تطلب المؤخر بتاعها، راجعه في كلامه تاني يمكن يكون رجع لعقله، خصوصًا إنه هو اللي طلّقها من نفسه مش احنا اللي طلبنا إنه يطلقها.

ضحكَ ساخرًا، ثم قال وكأنه يُعيد عليها ما تعرفه:

- هو طلقها وهو بيشك في سلوكها، اتهمنا في شرفنا، ده بالعافية سجل «آدم» بإسمه وكأنه كان بيتلكك علشان يطلقها وعامل فيلم علشان تبريه من حقوقها، عايزاني إزاي أروحله وأطلب منه فلوس، عيب عليَّ أوي لما أعمل كده!! ثم ما أبويا هو اللي قِبِل كل التنازلات دي، عايزاني إزاي أروح اخبَّط على بابه وهو ماعندوش ولا قلب ولا ضمير، هترضيها علينا؟!

دمعت عيناها ولسانها يلهج بالذِّكر قائلة:

- لله الأمر من قبل ومن بعد، حسبي الله ونعم الوكيل فيه، ضحك علينا بشكله الهادي و بتمثيله إنه بيعرف ربنا.

- كل واحد عايز يعرف ربنا بالشكل اللي هو عايزه، محدش يعرفه زَي ما ربنا عاوزنا نعرفه.

قالها هازئًا ثم همَّ أن يقوم من مكانهِ فأمسكت يده قائلة:

- خلاص خد يا ابني المنديل وبيع اللي فيه، مش هنحتاج لحد ومش هنطلب من حد غير من اللي خلقنا.

أمسك بالمنديل بعد أن ربت على يدها وتركها تموج في ذكريات طلاق «بيان» التي كانت غابت عنها أو كانت تريد أن تتناساها.

ليست كل الذكريات قابلة للنسيان، هناك ذكرى تظل رابضةً على القلب وكأنه مَناخها بعد عن احتارت في أن تجد لها مُستقرًا؛ فتظل فيه إلى أن نألفها وكأنها أصبحت جزءًا منا.

لم تكن تلك الفترة من حياتهم هينة، بل كان بها العديد من المشاحنات بين «عامر» و «طارق»، أما عن «جلال» فقد آثر السلامة ووافق على شروط طلاق «بيان» بلا أي رفضٍ لشيءٍ، قَبِل شرطَ ألَّا يكون له علاقة بجنينها وهو لا يزال في رحمها ولن يصرف عليه قرشًا واحدًا، وأنه سيتجرد من كل حقوقها.. هكذا بكل سهولة وافق أبوها على طلاقها ورفض

النقاش في أي شيء منهيًا إياه بجملة واحدة: «هيَّ بنتنا واحنا أولى بيها»، وليت الأبوّة فقط لملء البطون، ولكن الفقد يكون أعمق من تلك اللقيمات التي تسد جوع الجسد.. أما جوع المشاعر فكان له طريق آخر في عقل بيان.

***

في خلال تلك الفترة لم يُحادث عامر «أمل» بعد تلك الليلة إلا كلمات بسيطة تزيدها قلقًا من ردة فعله تجاه ما قالت، لم تكن هي فقط من تُقاتِل أفكارها، في كل ليلة كانت تنتظره وهو عائد من عمله تريد أن تركض وتفتح باب منزلها وتنتظر على الدَّرَج، ولكنها تُمسِك بزمام نفسها في آخر لحظة لتقف خلف الباب تستمع صوت قدميه الآتي من بعيدٍ وكأن صدى صوتهم يرتدُّ في قلبها كطلقات رصاص مكتومة فتعود أدراجها لتمنع نفسها عن إرسال رسائل جديدة له، إلى أن يُرسِل هو ويكلمها، كانت تعلم أنها لن تصمد طويلًا فقط كانت تتجرع الصبر إلى أن ينفد.

هو أيضًا كان بين أن يصدق كلماتها، وبين الرجل الشرقي الذي بداخله، وكيف يقبَل بعلاقاتها العابرة الماضية أو جرأتها في أن تعترف له مثل تلك الاعترافات.. ولمَ هو سيصدقها وأمها لم تصدقها ولا تزال نيران الشك تجاهها تستعر في قلبها، هل سيكون هو أرحم من أمها عليها.. كانت الاسئلة في رأسه كأبواق مزعجة لا يستطيع حتى أن يسُد أذنيه عنها لأنها تخرج من عقله، مشاعره أيضًا تضاربت بين الإشفاق عليها وبين إحتياجه لها وسأل نفسه هل أحبَّها حقًا؟ بل كان السؤال الأصعب على نفسه: هل يعرِف هو الحب!

* * *

18

(ومضاتٌ من الماضي)

المظاهر تخدع فقط الإنسان.. فكَمْ من إنسانٍ يُظهِر إنسانيّتَه في كل فرصة تقتضي ذلك متكلفًا ومع أوَّل موقف عفويٍّ يخرج الحيوان الشرس من داخله بمنتهى الفجاجة.

التقى «وليد» بعامر معاتبًا إياه عن غيابه كل تلك الفترة الماضية، ولكنه دومًا عتب الأصدقاء مهما كان ثقيلًا فلا هو يُغضبنا ولا يثقلنا، نُسميه عتابًا، ولكنه من داخلنا يعطي أثرًا آخر يجعلنا نشعر بأهميتنا فقط في قلوب أصدقائنا.. وهكذا كانا هذان الصديقان، لم يحتَجْ «عامر» أن يُبرر غيابه، وأيضًا «وليد» لم ينتظر ردًا على عتابه فقط كانت كلمات لا بُدَّ من أن تُقال ليس أكثر.

جلسا سويًا في الصيدلية قُبيل الفجر يتحدثان في أمر «بيان» وعلاجها سأله وليد:



- إمتى آخر مرة زُرت فيها «بيان» في المصحة؟

أجاب بآلية وكأنه اعتاد تلك الأسئلة:

- من عشرة أيام تقريبًا.. مابقتش أفتكر الأيام.. ما أنا لو فضِلت فاكر الأيام، ده هيخليني مش ناسي دفع باقي تكاليف المستشفى وده برضو مش هيخلي الأيام تقصر.

أماء «وليد» موافقًا ثم إنتفض كمن جائته فكرة قائلًا:

- هو مفيش مستشفيات قريبة مننا غير المستشفى النفسي اللي انت وديتها ليها قبل كده؟

أمسك «عامر» بيدة مهدئًا إياه قائلاً:

- دوَّرت كتير بس مالقِتش للأسف لما وديتها ما إدُّوهاش إلا حقنة مهدِّئة اعتقد اسمها «هالدول» ويادوب قاسولها الضغط وأما سالت ليه قالولي إجراء روتيني علشان ممكن الحقنة توطي ضغطها مش أكتر.

- هالدول.. ده مهدئ قوي للمرضى العقليين.



ثم استدرك ما قال بعد نظرة «عامر» له فقال:

- أنا آسف.. إنت عارف بقى بحكم المهنة.

قال له «عامر» دون أن يبالي بأسفه:

- مش مهم دلوقتِ.. دي الحقيقة، مش هيفيد في حاجة إني أهرب منها.

هز «وليد» رأسه آسفًا ثم قال:

- عندك حق بس هتعمل إيه لو إقامتها طوِّلِت أكتر من كده.

- مش عارف والله.. أنا حاسس إن عقلي هينفجر.. مستشفى نَفْسي إيه دي اللي مش بتستقبل حالات صُمّ وبُكم.. المفروض يحصل معاهم إيه؟

- البلد دي اللي مش معاه يتعالج يموت طالما إيده مش طايلة المستشفيات الخاصة.. وده طبعًا مش بس على المرضى النفسيين.. ده على الكل بس إحنا مش بنعترف بالمرض النفسي.

أكمل «عامر» حديثه قائلاً:

- أنا اللي واجعني إني إزاي ماخدتش بالي إن «بيان» بتموت من زمان.. أنا كمان بموت لكن قبل الموت الحقيقي ما يجي.. أنا مِسجون جوه قبر ضلمه جوايا ومش عارف هعيش فيه بقية حياتي ازاي.. عارف أنا بموتي ده بقتل اللي حواليَّ كمان.

نكس «وليد» رأسه ثم نظر في عمق عينيّ «عامر» قائلًا:

- تقصد أمل؟؟

ملأت الدهشة وجه «عامر» فلم يَكن ليملك الجرأة على أن يتحدث في هذا الموضوع أبدًا فقال له:

- وإنت مين قالك؟؟

- ماتستغربش كده.. «أمل» هيَّ اللي قالتلي.

غضب «عامر» وقام من مكانه قائلاً:

- إزاي تقولك حاجة زي كده، ولَّا إزاي أصلاً تجيلك لحد هنا وتحكيلك كده بكل جرأة.. ما اتكسفتش وهي بتعمل ده!!

لم يكن يسأل بل كان يُخرِج ما يمليه عليه ذاك الرجل الشرقي الرابض بداخله.. أجابه «وليد» بسرعة تواكب ثورة «عامر» قائلاً:

- هي ماجتش ولا قابلتني كل اللي عمَلِته إنها دورت عليّ في قائمة أصدقائك وبعتتلي رسالة.

كاد وجه «عامر» ينفجر من شدة احمراره ثم ضرب على الطاولة التي أمامه قائلاً:

- بقى كده.. وقالتلك إيه؟! قولّي حَكِتْلَك إيه، ويا ترى قالتلك القصة كلها.. كانت عايزاك تواسيها، ولَّا خطتها فشلت معايا فقالت ترمي خيوطها عليك!

ذُهل «وليد» مما قاله «عامر»، ثم أجابه والدهشة تكاد تستقطع جزءًا من وجهه قائلاً:

- إيه اللي إنت بتقوله ده خطة إيه وشِبَاك إيه!

أشاح «عامر» بوجهه عنه ثم قال:

- قولِّي بس هيَّ قالتلك إيه؟

- هي محكتش أي حاجة هي بس بعتتلي تطمن عليك، أنا اللي خَمِّنت إن ورا طريقتها دي قصة مش أكتر من كده.. إيه بقى كل اللي انت بتعمله ده؟

استدرك «عامر» ما فعلَ.. فلم يجد بداخله داعي لكل تلك الثورة فهدَّأ من ضجيجه ثم قال:

- مفيش حاجة يا وليد.. أنا هسيبك دلوقتِ، أنا آسف لو كنت ضايقتك بكلامي.

قالها وهو يغادر الصيدلية ولم ينتظر ردًا من «وليد» الذي كان يتألم بداخله ولكنه لم يُظهِر شيئًا آخر لصديقه.

نختبئ خلف قسمات وجهنا، ونخفي الكثير مما نشعر بداخل صندوقِنا الأسود ونُفاجأ ذات يوم أن الصندوق

قد ضاق بما نشعر وفاض به فترسم ألما بدلًا من أن تُعطي أملاً.

***

ابتلع «وليد» حسرته في ألمٍ عندما أكَّدَ له رَدُّ فعل «عامر» ما كان يُفكِّر فيه.. «أمل» اعتادت المرور على الصيدلية لشراء أدوية أمها.. كان يُكِنُّ لها إعجابًا تخطَّى خطواته الأولى، لم يكن بينهما كلمات سوى السؤال عن الحال وكيف الدواء ولا يخلو الأمر من استشارة دوائية لم يتأخر «وليد» عنها، ولكن آخر شيء فَكَّر فيه أن يكون بينها وبين «عامر» علاقة ما لا يعلم نوعها.. ولكن بالنهاية يوجد شيء ما بينهما، «أمل» بالنسبة لوليد الفتاة التي يَحلُم بها.. ابتسامتها التي لا تفارق شفتيها، وعيناها اللتان تلمعان دومًا.. خُدع في لمعانهما ظنَّ أن تلك اللمعة التي في فيهما كانت تقصده، ولكنه لم يُكن يعلم أنه ليس السبب في لمعانهما.. بدأ يسأل نفسه: تُرى ما الذي يعطيها إياه «عامر» ليجعل النور يُشِعُّ منهما بهذا الشكل؟! وليته يعلم أن «عامر» لم يُعطِها توهجًا، فقد زاد من انطفاء

روحها فيما بعد أكثر مما كانت.. هي فقط كانت تحاول أن تضيء كهذا المصباح الكهربائي الذي كلما سرى تيار كهربائي في لفاته يُنير بضع لحظات ثُم ينطفئ للأبد.

وهذا ما حدثَ لأمل عندما ظنت أن لحظات الجنون التي تسري في دماء «عامر» كانت كالتيار الكهربائي الذي لا يسير على وتيرة واحدة يعلو وينخفض فتهترئ معه الأسلاك عندما تحاول مجاراته فتنقطع وتصبح جامدة.. أو هكذا نظن، مع الصدمات الشديدة نعتقد أنها النهاية فنجد أن هناك صدمةً ربما تُميت القلب لوهلة، ولكنه يعاود النبض من جديد ولكن بدقات أهدأ وأنضج.

***

أجزاءٌ من دفتر «بيان»

«كرهت أمي كثيرًا عندما أصرّت أن أتزوج بهذا الشكل.. لم يَكُن يعرفني أو حتى رآني، فقد سَمع عني أو عن إعاقتي فقط، بعدما جرحتني أمي أيضًا بعدم

سمعي أو حتى جمالي المتوسط وأنه فُرصة يجب أن أغتنمها.. لم أكن أريد أن أتزوج إنسانًا طبيعيًا أو كما يقولون، كنت أريد أن أتزوج من الصُمّ والبُكم.. على الأقل نستطيع أن نفهم بعضنا البعض ولكنني عندما أخبرتها بذلك أعربت عن خوفها فقط أن ننجب طفلاً لا يسمع.. برغم أنها تعلم أنني لم أُولَد صماء، ولكن كانت على اقتناع أن من الممكن أن يُولَد الصغير وارثًا الصمم من أبيه.. لم أختر حتى كيف سأتواصل مع صغيري.. حتى إنني كرهته ليس فقط لأنني صرت غريبة عنه لا أسمعه ولا يفهمني بل لأنه نتاجٌ لكُلِّ شيءٍ حدثَ ضد رغبتي.. كرهت كُلَّ من عارضوني ووقفوا في طريقي.. كُلَّ مَن كان له يد في كسور لا تلتئم بداخلي.. أكرههم جميعًا».

ظِلال دُمية

تذكرت «نبيلة» ذاك الجزء من مُذكرات «بيان» بعدما ندمت على ما فعلت وما أفصحت عنه «بيان» فيما بعد في بقية مُذكراتها، لم تَكنْ تعلم أنها تُحطِّم طفلتها عندما أملَت عليها ما تفعل ورسمت لها طريقها ظنًا

منها أنها تريد الصالح لها.. يحدث أحيانًا أن تَحلُم باللون الأبيض فينقلب سوادًا ليس له آخر، ليس لأنك لم ترَ جيدًا بل لأنك توهمت أن لونه أبيض في حين أن هذا اللون المثالي ليس له وجودٌ إلا في خيالنا.. فقط في الخيال.

* * *

19

(مواجهة وسقوط)

في كل المواقف التي نمُر بها هناك موقف ما لا نستطيع تجاوُزَه مهما تظاهَرنا بذلك.

إعياء الجسد ربما نستطيع أن نقضي على الإحساس به ببعض المُسكِّنات، ولكن عندما تُنهَك أعصابُنا من جراء أفكارٍ لا تنتهي ولا تتوقف تُرى ماذا سَيُهدِّئ من قبضتها المؤلمة على عقولنا، كانت تلك حالة «عامر» الذي لم يتوقف عن التفكير فيما فعلَتْهُ أمل، حاول أن يُثني عقله عن التفكير فيها ويُلقي الأمر برمتهِ خارج زوايا عقله، ولكنه لم يستطع.. كان الوقت قد قارب على بزوغ الفجر، ولكنه كان يعلم أنها لا تزال مُستيقظةً.. فتح محادثتها وهمَّ بإرسال رسالة إليها ليكتب فيها «عاوز أشوفك».. لم تكن بعيدة عن أصابعه وهو يكتُب رسالته لها فكان ترى مؤشِّر الكتابة الذي يُخبرها أنه (يكتُب)، كانت تنتظره أن يفتح محادثتها ويهم بالكتابة إليها، كاد الانتظار أن يفتك

بقلبها من كثرة دقاته التي فاقت الحد فأجابته بنفس سرعة ذاك الوجيب الذي لم ينقطع بكلمة واحدة «إمتى؟؟؟» والعديد من علامات الاستفهام.. كتب لها «دلوقتِ..»، برقت عيناها لطلبه، ولكن فرحتها بلهفته عليها كانت أكبر؛ فحدَّدَت المكان هي في لمح البصر وكتبت في لهفةِ الظمآن لشربة ماء «هستناك على السلم بين الدورين».

لم يكن قد بدَّل ملابسه بعد، انتفض من مكانه وهرع ليخرج من الباب غير مكترث بنداء العقل أو أي شيء يكاد يُثنيه عمَّا يفعل هي فقط لحظة جنون.. ربما كان في عقله أن يعاتبها عمَّا فعلت، ولكن وجد شيئًا آخر يفرض سطوته في تلك اللحظة هو الجنون، أما هي كان الجنون له نصيبٌ كبيرٌ بداخلها، ولكنه لم يَكُنْ الوحيد الذي حرَّكها لتلتَقِيهُ في هذا الوقت غير مبالية بأي أعرافٍ أو تقاليدَ، كان الحُبُّ فقط هو ما دفعَها لتُجَنَّ به.. التقيا وانغمست بداخل صدره فهمَّ باحتضانها بكُلِّ ما أوتي من قوة حتى ظنَّ أنه سيكسر أضلعها، اقترب منها أكثر فشعرت أنه كان هناك شيء

آخر يقترب منها؛ إنها رغبته المحمومة التي تلاقت معها وليس هو، غابا في عناقٍ محمومٍ في ظل الظلام الباهت الذي بدَّدَتهُ خيوط الفجر ثم هدأ كلاهما وبدأت الكلمات تتسلل إلى لسانيهما اللاهثين.. ابتدرت الحديث قائلة:

- ماتبعدش عني مرة تانية.

بصوت يحاول أن يهدأ قال لها:

- ليه عملتِ كده؟ ليه كلمتِ «وليد» وسألتيه عني؟

نظرت مليًا إلى موضع قدميها ثم أجابت:

- كنت قلقانة عليك.. إنت بعدت عني واختفيت.

بصوت هامس أجابها:

- الاختفاء ده من عادتي.. أنا كده، أرجوكِ افهمي ده.

لم تُجبه فأكمل:

- اطلعي انتي دلوقتِ يمكن حد يجي ويشوفك.. هكلمك.

صعدت وهي تُفكر لمَ عليه دومًا أن يُمارس لُعبة الاختباء.. لم تكُن تحبُّها وهي صغيرة قَطّ.. ما المُتعة في أن يختبئ أحدهم ويبحث عنه الآخر!! كانت دومًا تعتبرها مضيعةً للوقت.. ربما لأنها مجرد لعبة سخيفة.. تُرى أيراها هي أيضًا مُجرَّد وقتٍ يمضي ليس أكثر!! لم تجد إجابةً، أفاقها رنينُ هاتفِها واسمه الذي أنار شاشتَها فأجابت بصوتها الهامس قائلة:

- وحشتني جدًا.

لم يُجِبها أو لم يحتَج أن يُجبها، ولكنها كانت تتوق لأن تسمع منه ردًا فأكملت:

- هو أنا ماوحشتكش؟

أجابها في هدوءٍ:

- وحشتيني..

أرادت أن تجد ردًا لما يعتمل في رأسها فسألته بعدما تنفست الصعداء لسماعها تلك الكلمة:

- ليه دايمًا بتهرب منِّي وكأني بطاردك؟

- يمكن علشان أنا ما أستحقش أكون هدف.

زفرت في حنقٍ قائلة:

- إجاباتك كلها ألغاز بتوهني.. ليه بتعمل معايا كده!!

لم يرد على سؤالها، ولكنه سألها قائلًا:

- قوليلي إيه رأيك في المقولة دي.. «ترى المرأة الرجل مُتحرشًا إلى أن يعجبها رجل فتطلق على ما يفعله غزلًا»؟

ترقرقت في عينها دمعة أبت أن تهطل فكتمتها تحشرجها، ولكنها لم تستطع أن تمنع صوتها أن يهتز وهي تقول:

- بقى كده.. ماشي أنا موافقاك على رأيك.



أجاب بكلمة وكأنه يُنهي الحديث بزر واحد فقال:

- تمام.

أغلقت الهاتف وهي تشتعل حنقًا، جرحتها كلماته وألقت على كاهلها لومًا لا طاقة لها به.. أما هو لم يكن يُبالي فأغمض عينيه وأسلم عقله لنومٍ قد أتى موعده.

***

هل كل قصة تُحكَى تكون هي الحقيقة أم أنها الحقيقة من وجهة نظرنا.. ماذا إن كانت نظرتنا مشوهة.. هل تكون حقيقة كاملة أم أنها منقوصة، ربما كانت كذلك، ولكنها تظل حقيقة وإن كانت من جانبنا نحن فقط.

أجزاء من دفتر «بيان»

بخطٍّ مهتزٍّ كتبت

« كانت تلك الأيام هي الأسوأ على الإطلاق.. أو ربما كان هناك أسوأ، لا أدري.. لم تكن لدي أحلام كبيرة في هذا الزواج ولم يَكُن عندي مُتطلبات كأي عروسٍ..

كنت أتحرك كجثةٍ هامدةٍ لم أكن أكترث سوى بتلك الفجوة التي ستنتقل معي من منزلنا إلى منزل الزوجية الخاوي من آمال الفتيات.. كانت به امرأة عجوزٌ تتشدق بحديثٍ لا أسمعه وزوجٌ يجلس في كنف أمه لا يبرحه إلا عند النوم، لا أستطيع أن اصف كيف كان يتعامل معي.. سألت نفسي كثيرًا هل أُعَدُّ زوجة حقًّا أم ماذا؟ لم أكن أعلم شيئًا عن ماهية الزواج.. حتى أمي لم تُخبرني كيف سأتجاوز ليلتي الأولى في بيت رجلٍ غريبٍ عني لا يوجد بيننا أيُّ طريقة للتواصل.. حتى التواصل الجسدي الذي اعتمدت أمي على أنه سيعلمني إياه لم يكن يعلم عنه شيئًا.. لم آبَه كثيرًا سوى بشيءٍ واحد استقر بداخلي؛ أنني لست أُنثى.. لستُ شيئًا.. يكاد يكون المقعد له قيمة عني، انتقلت ككَمٍّ مُهمَلٍ من مكانٍ إلى مكانٍ بل زاد عليه أنني كنت أعمل كخادمة يشيرون إليها بما تفعل وأعينهم مملوءة بالازدراء والحقارة.. أنا أيضًا كنت أرى في نفسي ذلك، ولكنهم عمقوا ذاك الشعور بداخلي أكثر كبذرةٍ ارتوت بماء الاحتقار فنبتت ألمًا.

مرَّ شهران وأنا لازلتُ عذراءَ أعمل كخادمة بالنهار وأحاول النوم ليلًا.. كان يُحدِّثني في رُكني المُظلِم، هو الوحيد الذي كان معي برغم خوفي من أن يراه أحدٌ، ولكنه ظَلَّ سريًّا الذي لا يعلم عنه أحدٌ إلى أن جاءت تلك الليلة التي حاولتُ فيها الاختباء من طارق، ولكنه جاء يترنح ويهذي، وجَّه وجهي نحوه فرأيت شفتيه تتحركان بكلمات لا أسمعها بالطبع.. أخذني بعنفٍ وهو لا يعي ما يفعل ولم أكن أنا أيضًا أعي.. خرج صوتي غير مفهومٍ فكتمه بيده طويلًا حتى انتهى مني.. بكيت كثيرًا أما هو فقد ارتمى بجانبي وغطَّ في سُبات عميق وأنا فزعة من دمائي التي ملأت فراشي وسوائله وهي تغزوني فنتج عنها نطفتي، فظهر لي حينها في الظلام يشير لي وهو يضحك قائلا «قُلت لكِ أن ما فعلتِه كان خطًأ كبيرًا، أنا فقط الجدير بكِ».. تركت الدماء تنساب منِّي والألم يكاد يفتك بي فتركت الألم يتخللني حتى تقزُّزي مما غزاني تركته.. كنت أستحق هذا العقاب فتركته ينال مني.. أنا المَلومة على كل شيء.. لذلك ارتميت على فراش الشوك غيرَ آبهةٍ



بمقدار العقاب، ولكن ظلَّ سُؤالٌ يتردد في عقلي «فيمَ أخطأت»..

تلك الدوائر التي تدور والتي لا نهاية لها وكأن القدر يجب عليه أن يعيد القصص لكي يتعلم منها الآخرون.. حكايا مُكررة وقصص لا تنتهي.. مُقدَّرات تعاد لأناسٍ ليس لهم ذنب سوى أنهم دروس لآخرين.. تُرى هل تدارك «جلال» هذا الدرس أم لا يزال يعتمر جلالَ كبرياءه وضلاله.. ربما علِمَ ما حدث لابنته، ولكنه لم يعِ الدرس فقط كان شيئًا عابر مثل كل شيء يمُر، فمن الصعب أن نتلقى الإشارات ونحن نعلم أننا معنيون بها فننحي التُهمة عنَّا ونقول إنه مجرد قدرٍ ليس أكثر ولا أقل.

* * *

20

(شيءٌ لا نهايةَ له)

هي أشياءُ لا تنتهي.. قابعةٌ بعيدًا في مكانٍ ما في العقل تنتظر أيَّ فرصةَ للخروج ولكنها فقط هادئة الآن.. ولا نعلم ماذا سيحدث فيما بعد!

في المستشفى

لم يتبقَّ سوى عدة أيام وتخرج «بيان» من المصحة ولا تزال تكتب رسائلها، ولكنها أصبحت أكثر إدراكًا مما قبل، كاد يقتلها شعورها بالذنب تجاه الجميع وبالأخص «آدم» ذاك الصغير الذي حُفِرَت في عقله صورةٌ لا تعلم كيف ستمحيها أو تهدم تلك الجدراية المحفورة بداخله.

كتبت للطبيب رسالة تخبره عن مدى ألمها فيما مضى وما تشعر به الآن قالت فيها:

«أنا مُتعبة ولكن ليس كما في السابق، لا أعلم هل الدواء له دور فيما أشعر به أم ما أكتبه لك وتقوله لي.. ولكن ما زالت تلك الأفكار تهاجمني بين الحين والآخر، لم أتخلص من شعوري بالذنب، ولازلت أسال لمَ يحدث لي كُلُّ هذا؟؟ لمَ!! أتذكَّر إجابتك أن ما يحدث لنا لا نختاره أبدًا ولا يحق لنا أن نسأل هذا السؤال؛ لأن إجابته لا نمتلكها، ولكن لم يحدث شيء غير عادي بالنسبة لي؛ كل الفتيات تتزوج وتحمل ولكن لم تُهَن.. أنا قد أُهِنت أنا من قد تَمَّ نعتي بالفاجرة وخرجت من بيت زوجي بفضيحة.. أنا التي أُجبِرت على التنازل عن كافة حقوقي من أجل ألا يتم فضحي.. ولمَ أُفضَح!! ولمَ قبِلَ أهلي بكل هذا الذل ولم يكن صعبًا أن يتم إثبات الصغير، نعم لم أكن أحب تلك الحياة ولا هذا الزوج، ولكن لم أكن أحب أن تنتهي تلك الزيجة على هذا النحو، عاملَتْني أمُّه معاملة تكاد الخادمة تأنف أن تتعامل بها.. حقدتُ حتى على أولئك الخادمات فكُن يمتلكن حق الرحيل.. لمَ تزوَّجني إذًا إن لم يكن يريد الزواج، هل عندك إجابة على هذا السؤال أم أن الإجابة لا تمتلكها أيضًا؟!، أنت تطمئنني في بعض الأحيان،

ولكن بداخلي ثورة لا تهدأ.. هل أستطيع التعبير عنها، يُخيل لي أنني أستطيع ولكن في لحظة تتجمد الكلمات في حلقي فأبتلعها ولا أعلم ماذا أقول.. أخبرتَني أني سأخرج من هنا قريبًا، ولكن كيف سأنظر في وجوه الجميع.. «آدم» كيف سأكون أمًّا له بعد أن حاوَلْتُ قتله.. ساعِدني أرجوك فلم أعد أتحمل كل تلك الثورة التي في رأسي».

في كل يوم غير مخصص للجلسات كانت الممرضة تأتي لبيان تأخذ منها الرسائل تعطيها لعماد فيقرأها ويكتب عنها ملاحظاته في ملفها، أما اليوم فكان يوم جلستها فأتتها الممرضة فمدت «بيان» لها بالأوراق لترجع يدها بها إليها مرة أخرى وهي تشير لها أن تأتي معها لتلتقي الطبيب، فرحت أنها ستتسلم منه الرد في نفس الوقت، دخلت إليه وقبل أن تجلس مدت إليه يدها بالرسائل وهي تبتسم في هدوءٍ.. بادلها الابتسام ونظر إلى الرسائل في تمهل ثم كتب لها:

- وريني فين الرسالة اللي كتبتيها النهارده؟



أعطاها الورقة بعد أن قرأتها قامت من مكانها تتفحص الرسائل ثم أعطته رسالة الاستفهامات الكثيرة.

أومأ برأسه وأخذ يقرأها وهي تتابعه بعينيها ثم كتب لها:

- عايزة إجابة دلوقتي؟ طيب مفيش حاجة عايزة تقولهالي غير الرسالة دي؟

قرأت ما كتبَ، ثم كتبت له على نفس الورقة:

- أنا موجوعة..

كتب لها سائلاً إياها:

- لسه بيوجعك بكلامه؟

نفت برأسها.. فأكمل كتابه وهو يسألها:

- قوليلي لسه بيكلمك؟ لسه بتشوفيه؟!

كتبت في هدوءٍ وكأنها تُفكر فيما تكتب أو تبحث عنه في مكانٍ ما بداخلها ثم قالت:

- مش عارفة هو موجود بس مش زي الأول.

كتب وهو يراقب عينيها:

- يعني مابقاش بيظهرلك ولّا إيه؟؟

نفت برأسها من فور قراءتها ثم كتبت:

- لا لا مابقتش بشوفه.

أومأ برأسه ثم كتب لها:

- هجاوبك على أسئلتك بس مش دلوقتِ لما ترجعي أوضتك، بس دلوقتِ عايز أعرَّفِك حاجة إنك بقيتِ أحسن بس توعدينى إنك لما تخرجي من هنا هتاخدي الأدوية بتاعتك وفي مواعيدها اللي هكتبهالك.. اتفقنا؟

قرأت ما كتب مليًا ثم كتبت:

- أقدر أرجعلك لو احتَجْت ده؟

أومأ على الفور بأن نعم، كتبت من جديد:

- هتجاوبني على أسئلتي:

كتب لها:

- على أدّ ما أقدر هجاوبك.

ألحق جملته بابتسامة دافئة ثم كتب:

- هتكملي حياتك وتنطلقي فيها بدون أي مشاكل.. كل اللى عليكِ إنك تخلي بالك مِن الأفكار اللي بتدور في عقلك.. ودلوقتي خلاص خلّصنا الجلسه ويومين كده ونقعد مرة كمان قبل ما تخرجي الإسبوع الجاي.

أومأت برأسها وأخذتها الممرضة بعد أن استدعاها لتصطحبها إلى عنبرها الكبير لتسكُن فيه ما بقي لها من أيام.

***

مرت الأيام وجلال ذاك الأب الغائب لا يلتقيهم سوى صُدف.. وبركان يغلي بداخل «عامر» الذي شعر بحممه تحرق قلبه وهو يفتقد دور الأب الذي يسأل ويهتم



ويبالي بما يحدث في هذا المنزل الذي يُشبه المقبرة الجامعية.. نعم فجميعهم أموات ينتظرون الموت الأكبر يقتلع أرواحهم في صخبٍ فرحةً لأنها ستتخلص من أجسادٍ مُنهكة سئمت تلك الحياة الراكدة.

ظلت هكذا إلى أن أتى ذاك اليوم الذي ضاقت الأرض على «عامر» بما رحبت وهو يُمسك بذاك المنديل الذي يحتوي على سلسال أمِهِ.. فتحه في تأنٍّ وظل ينظرله وهو يتمنى لو أنه يستطيع ألا يبيعه لكي تحتفظ به وهو يعلم مدى حبها له.. ولكنه لم يستطع أن يفعل فأغلق المنديل وذهب لكي يبيعه فلم يتبقَّ سوى أيام وتخرج «بيان» وعليه أن يدفع تكاليف المصحة، وبقدر فرحته بخروج «بيان» إلا أن قلبه ضاقَ بقلة الحيلة وضيق ذات اليد.. قبضَ على المال الذي بالكاد أكمل المبلغ المطلوب وبضعة جنيهات يستطيع أن يسد قدرًا من دينه لوليد، وضع قبضته وهي مملوءة في جيبه وعاد إلى المنزل، تعجَّب من وجود «جلال» فيه يجلس يتناول طعامه وحده على طاولة الطعام.. مرَّ

بجانبه ثم لم تُطِعه قدماه في أن يتجاوزه أكثر من هذا قائلًا:

- أنا بقالي كتير ماشُفتكش لدرجة إني حسيت إنك سافرت ومش عايش معانا.

تظاهر «جلال» بأنه منشغل بالطعام الذي أمامه ثم قال:

- أكلت؟!

نظر له هازئًا ثم نظر إليه في عمق عينيه قائلًا:

- أكلت !! طيب مش هتسأل عامل إيه.. مش هتسألني عن بيان.. مش هتسألني هيَّ هتخرج إمتي ولا ازاي دبَّرنا الفلوس؟ هو الأكل بس كل اهتمامك، هي كل مهمتك معانا تجيبلنا اللي يسد جوعنا.. الجوع مش جوع البطن بس.. الجوع هو اللي بنحس بيه أنا وأمي وبيان، الجوع لإحساس ماحسِنَهُوش قبل كده.. الجوع هو إنت.. فاهمني؟؟

قال تلك الكلمات وصوته يرتفع كالرنين التصاعدي الذي في نهايته تشعر معه بضجيجٍ يحتم عليك الرد بعدها فانتفض «جلال» من مكانه بعد أن فاجأته كلمات «عامر» فاكمل «عامر» دون أن ينتظر منه ردًا فترجم ما رآه على وجه أبيه قائلاً:

- إيه اتفاجئت من كلامي.. صح.. محدش فينا قالك إننا محتاجينك على أمل إنك ربنا يفوقك في يوم.. بس خلاصإاحنا كبرنا مابقِناش أطفال وعرفنا دور كل واحد فينا في المقبرة اللي إحنا عايشين فيها ومبنية جوانا.. إنت مش مكسوف من اللي بتعمله فينا.. مش حاسس إنك ضيعتنا!!. أنا اللي خلّتني أشيل دورك اللي إنت اتخليت عنه وأمي اللي انطفت من زمان والمرض اللي كَلْ جسمها، وبيان اللي مرمية في مستشفى.. إنت عارف عملت فينا إيه؟ ياريتنا كنا عايشين من غيرك على الأقل كنا هنعيش مش مستنيين أب موجود ومش موجود، إمتى هتفوق من غيبوبتك دي.. قولّي إمتى؟؟

كان صراخ «عامر» قد ملأ أرجاء المنزل؛ فخرجت «نبيلة» من غرفتها هلعة عندما سمعت ما قاله «عامر» لأبيه فمدّت الخطى إليه وهي تقول:

- بس يا ابني كفاياك بقى، اسكت.

فالتفت لها قائلاً:

- أسكت!! السكوت ده سبب كل اللي عشناه.. ليه رضيتِ بكل ده ولّا عشان بس تسدي جوعنا وتلمينا في بيت وخلاص.. البيت اللي ماحسناش فيه بأي حاجة غير السكوت.. ومقابل ده اتدمرت روحنا وبقينا أقرب للمجانين.. انتي لما جوّزتِ بنتك لراجل أكبر منها بكل السنين دي عشان بس تطلع من المكان ده.. ولما دفنتِ نفسك مع راجل ماحَبِّكيش في يوم من الأيام عشتِ زي الأموات ومابقتيش قادرة تحتوينا.. قوليلي انتي دلوقتِ مبسوطة بينا كده؟ ابن بيمثل إنه الكبير والمسئول وهو حتى ما اتعلمش المسئولية من أبوه.

قالها وهو يُشير إلى «جلال» الذي ردَّ بدوره على «عامر» قائلاً:

- دلوقتِ بس عرفت غلطتي.. إن أنا فعلاً ماعرفتش أربيك وانت بتقول كل الِكلام ده.

ثم نظر إلى «نبيلة» قائلاً:

- وانتي كمان.. كل السنين اللي فاتت دي بتسقيهم كره ليَّ.. علمتيهم الكره والجحود؟؟

أمسك به «عامر» قائلاً:

- كلمني أنا.. هي مالهاش ذنب.. لسه برضو هترمي عليها اللي إنت سبب فيه..!

أمسكت «نبيلة» بيد «عامر» الممسكة بذراع «جلال» الواهنة وهي تقول:

- بس يا «عامر» كفياك.. سيب أبوك، آه غلطنا لكن خلاص اللي حصل حصل ودلوقتي هشيل تَمن تضحيتي.. كنت فاكرة إني بعمل الخير بصبري بس

عرفت دلوقتِ إنه ماكانش صبر ده كان ضعف وقلة حيلة.. سامحني يا ابني.

صمت «عامر» وقد أدرك أنه قد تخطى الحدود التي علت أسوارها بينهم خِلال كل تلك الأعوام التي مضت.. ولّاهما ظهره ليدخل غرفته وهو يلهث من اعتلاء ذاك الحاجز الذي طبقَ على أنفاسه.. كان يظن أنه عندما سيُلقي حُمم البركان الذي يشتعل بداخله سيرتاح من حرائقه، ولكنه احترق أكثر عندما علم أنَّ لا شيء سوف يتغير، سيظل «جلال» أباه وستظل «نبيلة» بضعفها وقلة حيلتها أمه.. سيظل يتحمل أخطاءهما وربما أبناؤه سيتحملون أخطاءه.. فهي سلسلة من الأخطاء وليتنا نستطيع بيعها أو استبدالها بشيءٍ آخر نستطيع أن نتعايش معه في هدوءٍ.

دخل غرفته وهو عازمٌ على أن يجب على الحياة أن تستمر.. عليه أن يقبَلها بكل ما فيها.. عليه أن يُفكر فقط في خروج «بيان» من المستشفى وفيما يُخبئه القدر له فيما بعد.

21

(مواعيد مؤجَّلة)

هل إرجاء ما يؤلمنا لفيما بعد يُهدِّئ من ثورة النار المستعرة بداخلنا أم أنه كَمَنْ يزيد النيران حطبًا فتزداد توهُّجًا!

ظلَّ «وليد» يُفكر فيما حدثَ بينه وبين عامر.. ازداد انشغاله أيضًا بـ «أمل» التي أصبحت كشمعة يخبُو نورها، فكَّر في أن يحادثها، ولكنه تراجع عن الفكرة التي لطالما راودته قبل هذا اليوم الذي حادثته من أجل عامر.. ظنَّ حينها أنها لاحظت اهتمامه بها ولكنه وجدها تحادثه من أجل صديقه.. ظلت محادثتها مفتوحة أمامه إلى أن وجد كلمة (يَكتب الآن) تتحرك أمامه في رتابة، كاد الانتظار يقتله فإذا بها كتبت.. «ممكن أكلمك شوية لو مايضايقكش».. أجابها بدقات قلبه قبل أن يكتب لها «إزيك؟».. بميكانيكية أجابت أنها بخير ولكنها لم تكن كذلك، كانت موقنة بداخلها أن لن تعود مثل سابق عهدها في حبها لعامر فأرادت أن



تتخلص من شبحه وتتركه عند وليد، أرادت أن تزيح هذا الهم عن كاهلها وتجيب عن علامات الاستفهام التي كلما مرت من أمام الصيدلية حتى وان لم تلتقِ به وجهًا لوجه تجدها تسابقها وتحيط بها، مهّد «وليد» الطريق أمامها عندما أخبرها أنه لا يظن أنها بخير فأجابت بان نعم، وبدأت في قص ماحدث بينها وبين عامر.. أخبرته أنها أحبته ولم تكن تريد منه شيئًا غير الحب وأخبرته بجرحه لها بكلماته الثقيلة على روحها، تركها تقص كل القصة منذ البداية ولم يقاطعها.. شعر بها وبمأساتها التي تعيشها.. لم تصدق أنه يُصدِّقها في كل كلمة أخبرته بها لدرجة أنها كررت تلك الجملة عليه كثيرًا قائلة:

- إنت مصدقني؟

أجابها من فوره:

- آه مصدقك وإيه اللي هيخليكِ تكدبي.. أنا ما أجبرتكيش إنك تتكلمي عن حاجة.

خجلت من كلماته فأكملت:

- مفيش مجرد إحساس حسيته مش أكتر.

أخبرها بأنه يصدقها وليس من اليوم ولكن منذ زمن؛ فكتبت له علامة استفهام فأخبرها بما يشعر به تجاهها بدون أن يراعي ما كانت تحكي له أو «عامر» ومشاعرها تجاهه بدون أن يدرك أي شيء سوى مشاعره تجاهها.. لم تجبه ولكنها أخبرته أنها لا تريد أن تظلمه معها وهي لا تزال جريحة سهم أصابها في مقتل.

هكذا هي المشاعر شيءٌ عظيمٌ ريثما تتملكك تسلب منك أي شيء آخر وكأنَّ الحُب قد طمس على بقية الجوارح وأصبح سيد الموقف.

***

لم يذهب «جلال» في أي مكان اليوم التالي للهجوم الضاري الذي شنَّه عليه «عامر» ظلَّ حبيس غرفته يُفكر فيما قاله طفل الأمس الذي كان يلهو ولا يبالي به



والذي أصبح اليوم رجلًا يدرك كُلَّ شيءٍ لم يعره يومًا اهتمامًا.. لم يحسب الحساب لهذا اليوم قَطّ.. ذاك اليوم الذي يكبر فيه الصغير ويواجههُ بكل أخطاء الأمس التي لا تُمحَى، كانت المواجهة ثقيلة على «جلال» كجحر جثم على صدره فأطبق على قلبه ولا يستطيع الفكاك منه؛ فلم يتحمل قلبه وعقله ما حدث فتقلصت شرايينه ولم يشعر إلا بصراخه وهو ينهمر منه كهدير محرك قارب على التوقف.. جاءته «نبيلة» والخوف يملأ قلبها عليه مما هو فيه.. رات علامات الموت تُرسم على وجهه فصرخت لتُكمل صراخه المُتقطّع ليسمعها كُلُّ مَن هم حولها وأولهم «عامر» الذي انتفض من فراشه يصطدم بالأثاث وهو في طريقه إلى غرفة أبيه وأم «أمل» التي سارعت في النزول إليها وهي تدق الباب في هلع منادية على «نبيلة» أن تفتح لها، جرت «نبيلة» نحو الباب تاركة «جلال» مع «عامر» الذي كان يقف بجانب أبيه الذي يشير إليه لكي يقترب منه ليسمعه بعض الكلمات التي أبى صوته أن ينطقها قائلًا له:

- سامحني يا ابني..

بحروف متقطعة أكمل:

- سامحوني كلكم.

ربت «عامر» على كتف أبيه أن يهدأ الآن ريثما يعجِّل بمجيء عربة الإسعاف لكي تأتيهم فشدَّه إليه بيدٍ واهنة وأكمل:

- قولي إنك سامحتني.. أنا خايف.

لم يكن يعلم «عامر» ماذا يقول أو يفعل في هذا الموقف.. هل ينسى ما حدث له طيلة عمره أم «بيان» الملقاة في المستشفى أم أمه التي تبكي بحرقة وهي تحاول أن تسعفه؟؟ لم يكن يعلم ما عليه فعله، في غمرة كل تلك التضاربات بداخله نظر في عيني أبيه وجدهما تدمعان، فهمَّ أن يخبره أنه سامحه ولكنها كانت دموع الروح وهي تفارق ذاك الجسد وتركته هامدًا.

كان رجال الإسعاف قد أتوا بعد أن فقدوا أهمية وجودهم بموت «جلال» فلم يكن لهم أهمية سوى في أن يؤكدوا على أنه قد مات بعدما أحكمت الجلطة قبضتها على قلبه فلم يستطع أن يُقاومها واستسلم لها ولم يستطع أن يتشبث بروحه التي تركته صاغرة إلى السماء لحقتها صرخات «نبيلة» لعلها ترجعها إليه من جديدٍ، ولكن لم يرجع النحيب يومًا روحًا استعادها خالقُها.

عند الموت لا نُفكر فيما فعله بنا مَن ماتَ فقط نُفكر في فراقه.. في ذاك المكان الذي تركه خاويًا.. وربما نبحث عن أي شيء فعلناه ليتركنا لنشعر بالذنب.. وكأننا نهوى تعذيب أنفسنا حتى إن كان القدر يريد ذلك.

هكذا شعر «عامر» أنه السبب فيما حدث لجلال بكاه كما لم يبكِ من قبل، تمنى لو أنه ظل حاضرًا غائبًا على أن يكون الغياب هو السمة الأساسية التي تقترن به.. غياب لا عودة فيه، رحيل أبديٌّ لا عودة منه، كل شيء كان لا يُحتمَل؛ مرض «بيان» وموت جلال.. تُرى ماذا

يُخبئ القدر له – هكذا تساءل «عامر» -، تمنى لو أنه لم يواجه أباه.. لو لم يصرخ في وجهه.. لو التمس له أيَّ عُذرٍ.. لو أنه عاجلَهُ بتلك الكلمة التي يريد أن يسمعها منه.. ولكن هل تكفي الأعذار لنستكمل بها الحياة.. من السهل أن نلتمس أعذارًا للجميع ولكن هل سنتحمل ما نحاول أن نقنع به أنفسنا.. هل سنصدق تلك الأعذار التي نعطيها لمن أخطأوا في حقنا، هل نستطيع أن نسامحهم بأعذارٍ لم يفكروا حتى في أن يختلقوها لنا بل أعطيناها لهم فقط.. لكي نتجاوز ما فعلوه فينا.. كانت أفكار «عامر» تتضارب في عقله وأطلق بداخل عقله آخر سؤال كاد يقتله عندما طرحه عقله عليه «هل الموت يجعلنا نسامح.. أم نُجبر أنفسنا على أن نسامح من أجل ألا نموت بسياط شعورنا بالذنب تجاه مَن ماتوا؟!

مات «جلال» وأصبح المنزل خاويًا على «نبيلة» إلا من بعض المعزيين الذين تعرف بعضهم ولا تعرف البعض الآخر ودموعها تنهمر في خفوت، لا تعلم هل تبكيه أم تبكي عمرًا ضاع في انتظار جزاء صبر أُمرت

أن تتجرع مرارته في صمتٍ، ربما كان موته هو جزاء صبرها فانتهت حياتها معه لتستريح من كل ما عانت منه معه، ولكن كان بداخل حلقها غصة تكاد تخنقها ربما هي مرارة الفراق لرجل تمنت أن يكون لها كل شيء فأخذ منها كل شيء ورحل..

يجلس «عامر» على كرسيٍّ أسفل بنايته يستقبل العزاء فأتته طفلةٌ صغيرةٌ في العاشرة من عمرها تهرول عليه وقفت أمامه قائلة:

- إنت عامر؟

كان على وشك أن يجيبها فنظر على بُعد خطواتٍ منها فوجد امرأة في في الأربعين من عمرها تقف على استحياء ترتدي ملابس الحداد وهي تقترب وتمد يدها لعامر قائلة:

- البقاء للّه.

* * *

22

(المكان مزدحم)

في كل مرة ينقر الوجع بأناملة على جدران قلبك.. أخبِرهُ أن القلب امتلأ ولم يعد به مكانٌ لوجعٍ جديدٍ.

ظلت «أمل» تُفكر في كلمات «عامر» ووليد وتعقد المقارنات بينهما، وتعنِّف قلبها على مشاعرها تجاه مَن لم يشعر بها وبين من كنَّ لها حبًا لم تعلم عنه شيئًا، شعرت أن ما بداخلها تجاه «وليد» شفقة على مشاعره التي بثها إليها وهي في حالة لا تسمح لها بفتح قلبها من جديدٍ لمشاعر أخرى حتى وإن كانت صادقة.. لم يتعجلها «وليد» في شيءٍ تركها فقط تبث أحزانها إليه حتى وإن كانت تعلم مدى ألمه وهي تحكي له عن «عامر» الذي أسمته «حُبّ العمر»، في كل مرة كانت تحكي له لم تخلُ كلماتها من عبارات مثل «أول مرة أحب بالشكل ده».. «أول مرة أحس بالإهانة كده».

في كل مرة نقول إنها المرة الأولى لم تكن أبدًا مرتنا الأولى، ولكننا تناسيناها وكأن كل شيء جديد يصبح المرة الأولى بداخلنا.

حاولَ «وليد» أن يجعلها تتجاوز كلَّ ما تشعر به من ألمٍ، ولكنه لم يستطع أن يتجاوز ألمه ليكون في منطقة الأمان التي ينشدها قلبه.. شاركته أفكارها في أن تتحدث مع عامر، حاول أن ينصحها بأن تلتزم الصمت، ولكنه لم يستطع أن يُثنيها عن رغبتها في أن تتحدث معه مبررةً له أن المواجهة أفضل من أن تتجاهل ما حدثَ وكأنه لم يحدث.

هي فقط تجاهلت الحقيقة التي سطعت في عينيها كسطوع الشمس؛ فجعلتها لا تبصر غير ما تراه بقعًا سوداء يتخللها وميضٌ ساطعٌ فأغشى عينيها فجعلها لا ترى شيئًا سوى ما بداخلها من حُبٍّ ظنته حبًا.. أغفلت أن هناك أشياء من الأفضل أن تتجاهلها لكي لا نصطدم بما هو أعنف مما واجهناه، أمسكت هاتفها وضغطت على اسم «عامر» فأتاها الرنين ليزلزل جسدها وهي تلهث، فكرت أن تُغلِق الهاتف قبيل أن يُفتح، ولكن كان

قد فُتِح بالفعل وأتاها صوت «عامر» متهدجًا وهو يقول:

- أهلاً أمل.. إزيك؟

صمتت برهة وعقلها يُحدثها (وكأنني هاتفتك لتسأل عن حالي) تمالكَت أنفاسها وتجاهلت سؤاله ثم قالت:

- البقاء لله.. الله يرحم عمي جلال.

تنفس في حزن قائلاً:

- ونعم بالله.

فكرت أن تصمت عن عتابها الذي كتمته في قلبها أيامًا.. عن غيابه عنها وتجاهله لما قال لها في محادثتهما الأخيرة، ولكنها وجدته يبادرها قائلاً:

- كنتِ فين الأيام اللي فاتت.. مُختفية ليه؟

تقلصت جبهتها اندهاشًا مما قال وكأنه لم يفعل شيئًا.. هل تراه يتناسى ما حدثَ أم أنه لم يحدث وكان مجرد

حديث عابر كان بين اثنين لا يعنيان لبعضيهما شيء، أخرجها من أفكاراها قائلاً:

- أمل.. انتي معايا؟

أجابته بجفاءٍ لم تخطط له قائلة:

- لا مابقتش معاك.. أنا كلمتك بس عشان أعزيك، هسيبك دلوقتِ.

هكذا قررت أن تُنهي الحديث الذي لا فائدة منه، ولكنه تجاهل ما قالت فأكمل:

- «أمل» أنا محتاجك.. أنا بمر بظروف صعبة، ممكن تخليكِ جنبي.. دايمًا كنتِ بتتحمليني.. فين اللي كان جوالكِ ليّ.. أنا ماضحكتش عليكِ في حاجة، وبرضو كنتِ دايمًا جنبى.. إيه اللي غيرك دلوقتِ؟!

أجابته باقتضاب قائلة:

- خلينا نرجع لنقطة البداية زي ما بدأنا أغراب نرجع أغراب برضو.. من غير ما أستنى منك حاجة ولا إنت

تستنى منى حاجه، ده أحسن لينا إحنا الاتنين.

صمت وكأنها أعادته لنفسه التي يمقتها فقال:

- تمام.. فعلاً ده أحسن لينا احنا الاتنين بس عايزك تعرفي....

قاطعته وكأنها تعلم ما سيقول.. كانت تعلم أنه سيضع مِلحًا على جرحها الذي تحاول تضميده قائلة:

- «عامر» كفاية أوي اللي عرفته عنك ومنك.. كفاية اللي شربته من إلم في اللي فات.. مابتكلمش عنك إنت بس لكن عن كل حاجة مريت بيها في حياتي.. إنت أكبر درس ليَّ وهفضل أتعلم منه طول حياتي واتطمِّن مش هتبقى مصدر ألم تاني جوايا لأني خلاص يئست منك.. إنت فعلاً كنت على حق بس أنا اللي ماكنتش قادرة أصدق اللي قُلته، كان متهيألي إني بحبي ليك هغيرك بس الحب مابيعملش المعجزات زي ما قالوا.. حبي ليك كان زي الدوا اللي أول ما تدوب طبقة السكر من عليه تكتشف مرارته، والمرارة دي

بَقِيت بحسها مع كل نفس بتنفسه.. أنا عايزة أعتذرلك عن كل لحظة خليتك تحس إني بفرض نفسي عليك.. وإني كنت بحط حبي قُدَّام قلبك، وقلبك رفض الحب ده بكل جحود، ماقدرتش أقبل إنك تقبل حبي بس وقت ما تبقى محتاجني.. بعتذرلك عن كل حاجة وإنت مش محتاج تعتذر عن أي حاجة أنا اللي كنت عايزة أصدق.. ودلوقتِ خلاص فُقت.

حاول أن يصحح ما قالت رغم أنه يعلم أن كل ما قالته به شيء من حقيقة، حاول أن يجمِّل الحقيقة ويضع لها رتوش الكذب ولكنه لم يفلح، صمت إلى أن صمت صوتها ولم يستمع إلا صوت إغلاق المكالمة فوضع الهاتف بجانبه وكأن هذا الحديث لم يدر وعاد يًفكر في الضيفة التي تجلس بالخارج مع أمِّه وبجانبها الطفلة ذات العشرة أعوام.

شعرت «أمل» أنها أخرجت شحنة الغضب التي بداخلها ولكنها كانت تعلم جيدًا أنها كاذبة؛ فلا هي تريد أن تعود لنقطة الصفر معه ولا تأسف أنها وضعت حبها له قربانًا لعله يومًا ما يتقبل منها فيسمح لها في

وقت لا تعلم موعده أن تدخل قلبه، فقط أرادت أن تثأر لكرامتها التي وضعها تحت قدميه غير مبالٍ بالألم الذي اعتراها إثر كلماته القاسية عليها، أرادت فقط أن تعطي فرصة لوليد أن يملأ ذاك الفراغ الذي خلفه «عامر» ويصلح ما قد كُسِر في قلبها. ترى هل كانت الفرصة لوليد أم كانت لها لكي تشعر بحب آخر غير حب عامر.

نظن أنَّ الآخريين يستطيعون إصلاح ما قد كُسِر بداخلنا، ولكن الحقيقة أننا نجرحهم بأنانيتنا غير مبالين بقلوبهم التي كانت تحاول أن تحتضن كسرنا فلا جروحنا تم تضميدها ولا قلوبهم باتت دون شرخٍ.

***

مرَّت الأيام المُتبقية لبيان في مصحتها النفسية ثقيلةً ورتيبةً كالدَّهر.. لم تعد تكتب رسائلها منذ أخبرها الطبيب أنها ستخرج بعدَ أيامٍ.. كان الخوف قد استبدَّ بها من العالم الخارجي الذي ستواجهه وحدها من جديدٍ.. لم تُفصِح عن خوفها لطبيبها.. ظلَّ فقط

بداخلها حبيسَ عقلها الذي أنهكته العقاقير فلم يعد يَقْوَى على الإفصاح عمَّا بداخله.. جاءتها الممرضة تخبرها أنَّ عليها أن تُلملم حاجياتها فقد حدَّدَ الطبيب موعد خروجها غدًا فانزعجت كثيرًا من هذا الخبر.. أخبرتها أنها تريد لقاء دكتور عماد في أقرب وقتٍ.. طمأنتها الممرضة بألَّا تقلق؛ فمِن الطبيعي أن يلتقيها قبل خروجها من المستشفى.

تلقت إشاراتها بشيءٍ من الخوف وعادت تنظر من جديد من نافذتها وهي لا تعلم ماذا ستواجه فيما بعد وما الذي يُخبئه لها القدرخارج تلك الأسوار العالية.

***

- ونعم بالله..

كان هذا ردَّ «نبيلة» على تعزية المرأة المجهولة التي أتتهم بطفلتها وهم لا يعلمون من هي؛ فبدأت حديثها بتعزية يملؤها البُكاء.. ثم تمالكت أنفاسها وقالت:

- عارفة إنك ماتعرفنيش.. أنا سميرة عبد التواب ودي بنتي «شهد عاصم البحري»، عارفة دلوقتِ كمية الأسئلة اللي بتدور في دماغك واللي مالهاش أي أساس بس والله الأستاذ «جلال» كان ونعم السند ليَّ لما جوزي اتوفى في حادثة فجأة، كان زميله في الشغل وبيعتبره ابنه وهو الله يرحمه كان بيعتبره أبوه.. لما عاصم الله يرحمه مات مالقِتش حد يقف جنبي أو حتى يخلص لي ورق معاشه إلا أستاذ جلال.. بس الحقيقة كان نعم الأب لينا وماسابنيش أحتاج لحد، وحَمَاني من شرور الناس وطمعهم فيَّ.

تهدج صوتها بالبكاء في وسط ذهول «نبيلة» ومسامع «عامر» الذي وصله صوتها الباكي من خلف الأبواب المُغلقة، ثم أكملت حديثها وهي تبتلع دموعها:

- كان نعم الأب.. وربنا يصبركم.. ويصبرني.

تنهدت «نبيلة» مما قالته السيدة المكلومة ثم شبكت يديها في بعضهما من قلة حيلتها ثم قالت:

- شكر الله سعيكم.

لم تجد سميرة ما تقوله؛ فمدَّت يدها لتُسلم على «نبيلة» وغادرتهما بدون أن يقوم أحدٌ بتوصيلها للباب، خرج «عامر» من غرفته على أثر سماعه صوت الباب وهو يُغلق.. أمسك بِكتف أمهِ ثم قال لها:

- نصيبنا يا أمي إن حنان أبونا يروح للغرب وإحنا لا حول لنا ولا قوة.

أجهشت «نبيلة» بالبكاء الذي كتمته طيلة وجود ضيفتها عندما سمعت كلمات «عامر» المواسية، وضعت يدها على يده وهي لا تزال على كتِفها ثم شدت عليها وقالت:

- مالناش غير ربنا يا ابني وانت من بعده.. مش هتتغير حياتنا كتير، كفاية إنه كان راجل طيب حتى لو بره البيت ده، يمكن كان بيكفَّر عن ذنبه معانا، يمكن ماقدِرش يبتدي معانا صفحة جديدة فحاول يعمل ده

مع ناس تانية وحياة تانية مافيهاش نبيلة أو «عامر» أو بيان.

تذكَّر «عامر» موعد خروج «بيان» الذي كان عليه أن يُذكِّر أمه به لعلَّ الفرح يزورها من جديدٍ.. فقال لها:

- أنا هروح بعد يومين أجيب بيان.. وهتبقى معانا أخيرًا.

نظرت له وعيناها تجولان في عينيه قائلة:

- شهر عدى بكل المر اللي فيه.. مش عارفة أفرح ولَّا أبكي إن في تلاتين يوم اتهددت كل حياتنا.

- ماتقوليش كده.. كل حاجة هتبقى كويسة.. وحتى لو قابلتنا شوية متاعب هتعدي.. كل حاجة بتعدي مفيش حاجة تستاهل إننا نقف عشانها زي ما كنا بنعمل الأول.

كل شيء سيمر حقًا، ولكن قبل أن يمر يجب أن يضغط على قلوبنا ويدهسها ويطبع كدماتٍ على أجسادنا.. ربما يسبب كسرًا وربما يأتي ببترٍ.. ثم بعد ذلك يمر،



ولكن ليس بسلامٍ مثلما كنا نعتقد، يتركنا مشوهين نعاني كي نعود مثل سابق عهدنا ولكن هيهات.

* * *

23

(نهاياتٌ مُعلَّقة)

ليس الموت فقط ما يَقتلع أرواحنا من مكامنها.. الحب أيضًا يفعل ذلك.

مرَّ اليومان في سلامٍ وذَهبَ «عامر» ليصطحب أختهِ إلى منزلها.. مرَّ الوقت عليه طويلًا وهو في الحافلة التي تُقله إلى القاهرة وكان كالدهر وهو ينتظر لقاءه بالدكتور عماد.. إلى أن سمع اسمه يُنادى عليه بأن موعده قد أتى، دلف إلى غرفة الكشف وبعد أن التقاه الطبيب وقد رسم على شفتيه ابتسامة صافية أشار إلى المقعد الذي بجوار المكتب ليجلس عليه ثم قال:

- أهلاً بيك أستاذ عامر، معلش على التأخير إنت عارف الشغل والمواعيد.

- مفيش مشكلة.. أنا مقدَّر ده.

وصمت قليلاً ثم استكمل:

- «بيان» عامله إيه؟

أجابه على الفور:

- بخير.. أنا طلبت إني اقابلك قبل ما هي تخرج لأكتر من سبب عشان تعرف إزاي تتعامل مع «بيان» في الفترة الجاية.. فمَعلش لو هطول عليك.

اعتدل «عامر» في جلسته وكأنه سيستمع إليه بكامل جسده فأكمل الطبيب:

- «بيان» بتعاني من حالة نادرة من الفصام.. بتشوف حاجات مش موجودة في الحقيقة.. ليه بقولك إنه مش موجود؟ لأن ممكن يكون الشخص ده من الناس اللي حواليها، ولكن ده مايكونش بيحصل وهو بس في خيالها.. خلقته عشان يديها الاهتمام اللي نِفسها فيه من اللي حواليها حتى لو كان بالسَّلْب، حد يساعدها تنفِّذ اللي في دماغها، يمكن حالة الصَّمَم اللي خلتها في قوقعة وماتعرفش أي حاجة عن اللي بيدور حواليها وده ساعد على خلق عالم خاص بيها بتعيش فيه مع

أشخاص وهميين ويمكن كمان بسبب سكوتها إنتوا كمان ماخدتوش بالكُم من حاجة زي دي!!

قاطعه «عامر» قائلًا:

- فعلاً مالاحظناش عليها حاجة.. كنا فاكرين قفلتها على نفسها بعد طلاقها سببه اللي شافته مع طليقها.

أكمل الطبيب حديث «عامر» قائلاً:

- مانقدرش ننكر إن الحدث ده مهم في حياتها وأثَّر عليها كتير.. إسمعني كويس.. المرض النفسي وخصوصًا العقلي بيبقى موجود في الجينات، وبرغم إنك ماقُلتليش إن في العيلة حد جاله اكتئاب مُزمِن مرضي أو أي محاولات انتحار أو إيذاء للنفس أو أي حاجة بس بالرغم من ده إلا إني متأكد إن في العيلة فيه حاجة من الحاجات زي دي.. لأن بيفضل جين المرض مستخبي جوه العقل لحد ما يحصل حاجة يخليه نشط بأي شكل من الأشكال.. وفي حالة «بيان» ده اللي حصل؛ فيه جين مرضي في عقلها ساعدت

الظروف الاجتماعية أو الأُسَرية على ظهوره.. كانت بتعاني منه قبل طلاقها وقبل جوازها أصلاً ولكن زاد عليها بعد كده لما خرج عليها في الشكل العنيف لما حاولت قتل ابنها، كان جواها تضارُب بين إنها أم ومَاينفعش تتخلص من ابنها وبين رغبتها في إنها تتخلص من حاجة بتفكرها بطليقها فخلت الشخصية الوهمية دي تديها أوامر ماينفعش ترفضها وتخلق لنفسها مبررات إنها تنفذ اللي بيقوله لها.. ودلوقتي إنت بقيت عارف التحليل النفسي لبيان.. عندك حاجة عايزة تضيفها قبل ما أتكلم في النقطة التانية!

صمت «عامر» قليلاً، ثم قرَّر أن يبوح بما في قلبه عندما تذكَّر ما كان فيه أبوه:

- مممم فعلاً أبويا كان بيعاني من حالة اكتئاب مزمن على حد وصفك ومن خلال اللي قريته عن المرض ده.. ماكانش بيهتم بينا ولا بأمي، حياته كانت لشغله وأوضته والقهوة اللي بيقعد عليها وأعتقد هو في أزمته دي من ساعة ما جدتي ماتت.. أبويا كمان مات من كام يوم بس مش منتحر مات بسبب أزمة قلبيه



ولكن اكتئابه كان جزء كبير في تكوين شخصيتنا.. مابقاش حد فينا سَوِي.. كلنا بقينا مضطربين مع اختلاف الشكل العام لاضطرابتنا.

- أنا مقدر ده ومش بقلل منه أبدًا.. كلنا مضطربين بشكل مختلف وعشان كده إحنا كأطباء وأخصائيين نفسيين موجودين عشان نقدر نساعد.. وفيه كتير بيمدوا لينا إيد المساعدة كمان كمتخصصين وهكذا مفيش حد كبير على التعب النفسي ماتقلقش من ده بس الأهم دلوقتِ إنك تساعد أختك عشان تخرج من أزمتها دي لازم نخليها تعمل حاجة إيجابية، إنت تعرف ان «بيان» بتكتب.. ممكن نوظف موهبتها دي وخيالها في الكتابة؛ فإيه رأيك في إننا ندعمها ونشجعها سوا على ده؟؟

أومأ «عامر» موافقًا على ما يقول ثم أكمل:

- لقينا بين حاجاتها مذكرات كانت كتباها.. فعلاً كان اللي مكتوب يوجع، أمي لامت نفسها على إنها جوِّزتها

الجوازة دى، كتبت عن «آدم» ابنها.. كتبت كل حاجة خلتني أشوف اللي ماكنُتش شايفه.

- دلوقتِ عليها إنها تكمّل الأدوية اللي كتبتهالها، وعليك إنك تتابعها كويس.. الأدوية دي بتخلي الشخص اللي في خيالها ده في مكان مقفول عليه جوه عقلها لكن مابيخرجش للواقع، هي بتقول إنه مابقاش موجود بس كفاية إنها مدركة إنه وهم مستخبي جوه عقلها ومابقاش موجود في الواقع.

- طيب وهنعمل إيه الخطوة الجاية؟

- عايزك تشجعها على الكتابة وتتكلم معاها على أدّ ما تقدر.. جايز هتقاوم الأدوية أوقات بس عليك إنك تتأكد إنها خدته وبلعته، خلي بالكم إوعوا حد يفتح معاها اللي حصل أو حد يلومها عليه.. عايزكم تتعاملوا معاها بشكل طبيعي.. ماتزودوش الاهتمام لأنها هتحس معاه بالذنب في حقكم في اللي فات.. اتعاملوا بس بالشكل الطبيعي على إنها إنسانة عادية مش على إنها مريضة.. اتفقنا؟



- اتفقنا.

- وباب مكتبي مفتوحلك في أي وقت تحتاجني فيه.. وأي حاجة «بيان» بتعاني منها هكون مبسوط لو جيت وعرفتهالي.

وقف دكتور عماد وبالتبعية وقف «عامر» وتصافح الاثنان في حرارة ثم خرجا سويًا ليستقبلا «بيان» وهي تغادر المستشفى.

مدت «بيان» يدها للدكتور عماد لتُسلم عليه ثم أشار لها بأن تستمر في الكتابة وأن تتواصل معه عبر الرسائل النصية وسوف يرد عليها حين يسمح وقته بهذا.

غادرت «بيان» المصحة مع أخيها وهي تنظر إلى النافذة التي كانت تنظر منها وهي مُحتجزة في عنبرها ثم أعادت النظر إلى المكان التي كانت تنظر إليه؛ فوجدته فسيحًا ومتسعة أركانه بل أوسع من تلك البقعة التي كانت تراها من زاوية نافذتها، ودَّعتها

وانطلقا إلى وجهتهما.. إلى المدينة الباسلة ذات النوارس المُحلِّقة لعلها تحلق معهما بخيالها في وقت ما.

***

مرت ثلاثة أشهر على خروج «بيان» من المستشفى.. حاول «عامر» أن يلتزم بتعليمات الطبيب على قدر المُستطاع وما أتاحه له وقته مع عمله الذي كان يتخلله مكالمات من أمه تبثه رفض «بيان» لتناول الدواء بحجة أنها أصبحت بخير ولا تحتاج تلك العقاقير بعد الآن، وما كان على «عامر» إلا أن يترك عمله قليل من الوقت ليعود إلى المنزل ليعطيها الدواء بنفسه.. لم تكن تعارضه أبدًا ولكن هذا شكَّلَ عليه ضغطًا آخر؛ فكان مُرهقًا عليه أن يترك عمله في مواعيد الدواء مما سيؤثر على استمراره بالعمل ولكنه كان على الأقل يُحاول أن يجتاز التعب ويتأقلم على هذا الوضع الجديد.

ثلاثة أشهر ولم يهاتف أو يحادث «أمل» وهي أيضًا لم تفعل، ولكنه لم ينسَ آخر محادثة بينهما برغم أنه تظاهر بالنسيان، فتح أغنية كان يستمع إليها ثم بعثَ كلماتها إلى أمل.. لم يكن ينتظر منها ردًا، ولكنه كان يُريد أن تعلم أنه لا يزال يشاركها ما يُحب.

فتحت «أمل» الرسالة التي كتب فيها مقطع من كلمات الأغنية التي تقول:

وأمر ما لقيت من ألم الهوى

قرب الحبيب وما إليه وصول

كانت تسمع تلك الأغنية وتعرفها جيدًا فأجابته بمقطع آخر منها لتكتب:

البدر يكمل كل شهر مرة

وهلال وجهك كل يوم كاملُ

أرضى فيغضب قاتلي فتعجبوا

يرضى القتيل وليس يرضى القاتلُ

رأى «عامر» ما كتبت فكتب لها

- إزيك؟

نست «أمل» أو تناست ما حدثَ قبل تلك الثلاثة أشهر التي كانت تحاول بهم أن تفتح قلبها لوليد، حاولت أن تندمج مع كلماته الرقيقة التي ظل يمطرها بها ليلًا ونهارًا واهتمامه الذي يكاد يغطيها، وسقط من حسبانها.. وتلك العلاقة التي تطورت إلى حد الارتباط الجدي بعدما فاتحها بأنه يريد أن يتقدم لخطبتها، حاولت أن توهم نفسها أن تظل مع من يحبها لا مع من تحبه ولكن فشلت تلك التابوهات المغلقة التي عاشت عليها بكلمة واحدة من «عامر» وأكملت حديثها معه وكأن شيئًا لم يحدث.

تلك البقعة التي يحتلها حُبٌّ ما لا يزال ينبض ولا تريد أن تختفي كانت لا تزال تحيا بداخلها فاستسلمت



لحديثٍ بلا أمل مع «عامر» الذي يأمل أن يُخلَق من جديد كإنسان يصلُح للحب.

لم تكن تعلم ماذا تفعل مع وليد، شعرت أنها لن تستطيع أن تجعل قلبها يكذب أكثر من ذلك تحت وطأة الاحتياج التي كانت تشعر به؛ فلا حبه داوى جروحها ولا استطاعت أن تفسح له مجالاً بداخلها كان يرسل لها دومًا ليسأل عنها ويتبادلان الحديث طيلة اليوم، ليلًا كان أو نهارًا.. أما «وليد» فوجدها ترد عليه باقتضابٍ زائدٍ لم تعد حتى تهتم به مثل السابق أو حتى تنتبه لاهتمامه بها، شعر أنه أصبح كمًّا مهملاً لا فائدة له أو أهمية أحس بها تنسحب من بين يديه كماء دافئ يأبى أن يستقر بين يديه فيمنحه بعض الدفء الذي يرجوه، ظلَّ يستمع إلى أعذارها التي كانت تتلوها عليه كميثاقٍ اعتاد على سماعه ولكن عقله أبى أن يصدق أعذراها إلى إن انقطعت عنه تمامًا ولم تعد حتى ترد على رسائله سبعة أيام لا يعلم عنها شيئًا حتى كاد أن يدق بابها ليسأل ما الذي حدث، ولكنه عاد عما يفكر فيه وازدادت اتصالاته لأمل



والحيرة تكاد تفتك به وظل يتساءل لماذا لا تجيب على اتصالاته إلى أن أفرغ محتوى عقله بداخل رسائله الإليكترونية والمرارة تعتصر قبله والهواجس تفتك به قائلاً: «إنتِ فين ومش بتردي عليَّ ليه؟؟».. وبرغم أنه يراها متصلة بحسابها على الفيسبوك ولكنها لم ترد عليه على الفور فزادت من اشتعال روحه وظنَّ أنه يكاد يستمع إلى دقات قلبه وهو يترقب تلك الإشارة الرتيبة لعلها تخبره أنها تكتب الآن، ولكنها لم تظهر فكتب من جديدٍ: «رُدي عليَّ.. في إيه، إتغيرتِ ليه؟»، تمنى لو تُطفئ تلك النيران المُستعرة بداخله ولكن جاءه ردها فاترًا هادئًا لم يتناسب مع ثورته.. كتبت: «آسفة كل شيء قسمة ونصيب»، لم يتوقع هذا الرد فكتب على الفور:

- مش فاهم..

ثم تبع جملته متواليا بعلامات استفهام عدة ثم كتب:

- تقصدي إيه!!



كان يفهم مقصدها جيدًا، ولكن كان يريد سببًا لتغيرها معه بهذا الشكل فأجابته.

- أنا ماكنتش متأكدة من مشاعري ناحيتك فمش عاوزة أظلمك معايا.

ثم صمتت قليلًا وكتبت تلك الجملة المعتادة الثقيلة الأحرف:

- إنت تستاهل حد أحسن مني يحبك زي ما إنت بتحبه مش زي علاقتنا، إنت بتحبني أكتر ما بحبك.

فار دمه من شدة الغليان الذي انتابه فكتب لها:

- انتي ماحبتنيش أصلا يا «أمل» ماتقوليش إنك حبتيني أنا اللي كنت بوهم نفسي بس إنك بتحبيني أو إنك نسيتِ...

ثم صمت برهة بعدما ضغط على زر الإرسال قائلاً:

- عارفة يا «أمل» انتي صعبانة عليَّ جدًّا.. افتكرت إنك نسيتِ «عامر» وممكن تبدأي معايا حياة جديدة.



كتبت في هدوءٍ:

- أنا آسفة يا وليد.

فرَّت دمعة من عينه وهو يحاول أن يتحاشاها حتى بينه وبين نفسه ثم قرر أن يثأر لكرامته فكتب لها:

- لا ماتتأسفيش.. انتي مريضة والمريض ماعلهوش حرج.. انتي عملتِ كل ده بإرادتك اللي بيتأسف ده بيعمل حاجة غصب عنه لكن انتي اللي عاوزة كده.. بتحبي تسيبي السكة السهلة وتروحي للسكة الأصعب.. حد يحبك وتقوليله لا شكرًا ماقدرتش أحبك وحد يرفضك وتفضلي تجري وراه علشان يذلك، لكن حد يحترمك ده مايرضيكيش لأنك في األأساس مش بتحترمي نفسك أو تحبيها انتي بتعذبيها بعامر مش أكتر يا أمل.. عشان بس تفضلي حاسة جوالكِ إنك دايمًا ضحية للي حواليكِ، وإنك دايمًا مظلومة في مشاعرك معاهم.. أتمنالك عذاب يرضي نفسيتك المريضة.

قرأت ما كتبَ وهي لا تعلم أحقًا ما يقول فيها أم أنه مجرد ثأر لا معنى له، حتى إنها حاولت أن تمنع عقلها من التفكير في كلماته تلك وأغلقت هاتفها ظنًا منها أن الأفكار تُقتَل بغلق الهواتف ولكنها ظلت تُفكر واتتها الإجابة على كلمات «عامِر» من أعماقها فحدَّثت نفسها قائلة: «يمكن عنده حق أنا مابحبش نفسي عشان كده بعذبها».

لو نعلم ما نفعل بأنفسنا ما كنا قتلناها بكل ما أوتينا من قوة في محاولاتٍ مستميتة لنيل العذاب واجتثاثه من جذوره وإعادة زراعتها من جديدٍ في ركن معتم كنباتات الظل في هذا الركن القصي من قلوبنا، نسقيها بدمعٍ لا يجف وننتظر أن تزهر زهور ملونة بلونٍ آخر غير ذاك اللون القاتم الذي يسكننا، ولكن هباء ما زرعناه حزنًا نجنيه قهرًا.

***

حاولت «بيان» أن تتعايش مع حياتها الجديدة بعدما عادت من المستشفى؛ تتناول أدويتها بصعوبة وتحت

رقابة «عامر» ونبيلة، حاولت أن تبني جسرًا جديدًا مع «آدم» بعدما آلمها خوفه منها عندما التقته في تلك المرة عندما دلفت إلى منزلهم واختبأ منها في جلباب أمها هربًا منها، لكن مع مرور الوقت بُني الجسر رويدً رويدًا بمساعدة «عامر» ونبيلة اللذين حاولا بكل الحب الذي بداخليهما أن يجتمعوا جميعًا على ذاك الشعور الذي فقده كلٌّ منهم، الحب الذي خُلق فينا ولا نعلم مدى أهميته وعندما نفقده نُصبح مشوهين ولا شيءَ يعيد ترميم ذاك التشوه سواه.

ظل «عامر» يُذكر «بيان» بالعهد الذي قطعته على نفسها مع دكتور عماد فابتاع لها أجنداتٍ لكي تكتب فيها وأقلامًا ملونة عدة فاختارت منهم قلمًا ذا خطٍّ أسود وأشارت لعامر قائلة:

- ينفع أكتب نهاية سعيدة بقلم لون خطه أسود ولّا هيكون مش مُعبر!!

هز كتفيه وهو يحاول الابتسام ثم أشار لها بكلتا يديه قائلاً:

- مش مهم لون الخط اللي هتكتبي بيه، المهم إن قلبك أبيض، تفتكري فيه قلم خطه أبيض لون قلبك كده علشان نكتب بيه نهاية حلوة؟؟ ثم إن دي مش نهاية دي بداية جديدة.

حركت رأسها له بلا مبالاة وهي تشيح بوجهها عنه ثم عادت لتنظر له من جديد قائلة:

- تفتكر هعرف أبدأ من جديد؟!

اقترب منها وقبلها قُبلةً حانية على جبهتها قائلاً:

- كل حد في الدنيا يقدر يبدأ من جديد بس إذا كان هو عاوز يبدأ بداية جديدة، انتي عاوزة إيه، شايفة «بيان» إزاي تقدر تبدأ ولَّا ماتقدرش؟

كانت الحيرة تمتلك الجزء الأكبر من قسمات وجهها فأجابت والخجل مما ستقول يعتريها قائلة:

- أنا مش عارفة أقول إيه.. أنا خايفة أخذلك بعد كل اللي عملته معايا إنت والدكتور، بس هحاول.

ربت على يدها تربيتات حانية مُطَمْئِنة ثم أشار لها:

- مش عاوزك تعملي حاجة عشانًا عاوزك تعملي عشانك إنتِ.. فهماني؟؟

أومأت بأن نعم، ثم أمسك «عامر» بالقلم والأجندة الزهرية اللون التي جلبها لها قائلاً:

- اكتبي يلا، أنا متأكد إنك هتكتبي حاجة جميلة، واثق من كدا.

ارتمت على صدره وهو يضمها بكلتا يديه.. كانت تُحدِّث نفسها بأن يا ليتها كانت تستطيع أن تخبره وهي بداخله أنها تحبه ولكنها اكتفت بأن تضع كفَّ يدها على قلبه وتربت عليه في هدوءٍ.

كان «عامر» يحتاج لتلك الربتات الضعيفة ولا يعلم لماذا يحتاجها وهو الذي لا يعرف لماذا قلبه يؤلمه بهذا الشكل.. حتى كلماته لبيان كان لا يعلم هل سيستطيع هو تنفيذها ويبدأ من جديدٍ أم لا.



سهلة الكلمات عندما تخرج منَّا في هيئة نصيحة للآخرين، وعندما نوضع في نفس الاختبار نشعر بالعجز يملأنا ونظل نُعيد تلك الكلمات التي أخبرَنا بها غيرنا لعلنا نبث تلك الروح الحماسية التي تعطي أملاً للآخرين أنهم يستطيعَون ولكننا نجدها بالية ولا نستطيع أن ننفذ منها حرفًا، حتى بعد أن عاد إلى «أمل» ظلَّ يعاملها بجفاء أحيانًا وأحيانًا أخرى ينتظر لحظات جنونها فيترك جنونه ينساب من بين قبضة يده بضع سويعات ثم يعود ذاك التمثال الخالي من المشاعر من جديدٍ.

كيف لنا أن نبدأ من جديدٍ ونحن نجهل من أين البداية.. ربما «بيان» كانت تعلم بدايتها وإن لم تبدأ كيف ستكون نهايتها، أما «عامر» فلم يكن يعلم كيف يبدأ من جديدٍ مرةً أخرى هو فقط يسلك ذات الدروب مرة أخرى واهمًا نفسه أنه ربما تلك هي البداية الجدية وهناك صدىً ما يتردد بداخله ويخبره أن تلك ليست بداية، وما هي الا تكرار لسلسلة من الأخطاء التي لا نهاية لها.

***

بدأت «بيان» في كتابة قصتها بكل مشاعرها وتناقُضَاتها ورجلها المجهول الذي يقبع في ركن قصي من عقلها مكبلًا بالأدوية التي تتناولها كل يوم وليلة، كانت تستدعيه من ذاكرتها لكي تتكتب عنه، كتبت للطبيب أنه أحيانًا يزعجها ما تكتب وأحيانًا أخرى يُريحه،ا أجابها أن حتى ما يزعجها عندما تكتب عنه سيريحها يومًا ما، أرسلت له ما كتبت عندما قرأ «عامر» سطورها انبهر بذاك الجانب الجديد الذي يكتشفه في أختِه، شجعها على أن ترسل للطبيب ما كتبت ففعلت بعدما كتبت كلمة النهاية، نالت سطورها استحسانًا كبيرًا عنده فاقترح عليها أن يرسل ما كتبته إلى صديقٍ له يساعدها في نشر كلماتها لتصل لقلوب أناس آخرين سيشعرون بأنها موجودةٌ بالفعل وليست فقاعة هواء تعيش كظلال دمية لا أهمية مثلما أخبرته فيما قبل.

سارت الأمور بسرعة لعلاقات الطبيب الاجتماعية واهتمامه بالأدب وبـ «بيان» وسيخرج عملها أخيرًا



للنور بعد رحلة عناء طويلة.

نحتاج دومًا لذاك السند الذي نستند عليه عند التعثر.. ربما ليس تعثُّرًا فعليًّا ولكن عندما تموت أرواحُنا نحتاج من يُحييها كاحتياج الأرض التي أصابها البوار بمن يصلح ما أفسدته يد لا تعلم كيف ستزرعها فتركها تبور.. كُلٌّ منا يحتاج إلى من يروي ذاك الجزء الذي جفَّ بداخله فظنَّ أنه لا يصلح لشيءٍ سوى الاستسلام للموت، كانت «بيان» سعيدة بمساعدة مَن حولها لها، شيءٌ واحد هو ما كان يُنغص عليها فرحتها؛ موت أبيها، كانت تتمنى لو كان معها ليسعد بما أحرزته ولكن ظل تساؤل بداخلها يتردد «يا ترى هيفرح فعلًا».. لم تكن تعلم ولكنها كانت تفتقد حضوره حتى لو كان غائبًا، حاولت أن تتناسى صدمتها عندما لم تجده في استقبالها وازدادت الصدمة عندما علمت أن غيابه أصبح إجباريًا وأنها لن تراه مجددًا، كانت تشعر بالذنب يكاد يفتك بها، ولكن «عامر» أخبرها أن لا ذنب لها في شيءٍ وأنه يتحمل كل الذنب وحده!

***

بيان تحمل «آدم» بين أحضانها وعامر وأمل يستقلان الحافلة في طريقهم للقاهرة في أواخر شهر يناير ينظر كُلٌّ منهم إلى الطريق والغيوم التي تملأ السماء فَرِحين بالشتاء الذي يحيي الدفء في قلوبهم.. نظر «آدم» إلى أمّه وهي يُحاول أن يُشير إليها لتفهم كلماته قائلاً:

- إحنا رايحين فين يا ماما؟

أجلسَته على قدميها ثم أشارت له:

- رايحين معرض الكتاب..

نظر له «عامر» وحدَّثه:

- ماما «بيان» كتبت قصة كبيرة ورايحين نشوفها وبعد كده هنتفسح.. إيه رأيك؟

أومأ موافقًا ثم سأل من جديد ببراءة الأطفال.

- واسم القصة دي إيه؟

ابتسم «عامر» وأجابه:



- اسمها «ارتباك» يا آدم.

نظر آدم للطريق ثم أعاد السؤال بطريقة طفولية:

- يعني إيه يعني الاسم ده؟

احتضنه ثم نظر معه للطريق وهو ينبري من أمه في سرة وقال له

- يعني يا آدم كل اللي مرينا بيه واللي لسه بنمر وهنمر بيه..

توقف آدم عن طرح الاسئلة وانشغل بمراقبة العربات أمامه وانشغل جميعهم..

تختلف النهايات عن البدايات؛ فلا حلاوة البدايات تستمر ولا مُر النهايات يجعلنا نتوقف عن المسير؛ فربما البداية تكون مؤلمة، ولكن في النهاية يوجد نُورٌ يُحلِّق من بعيد يخبرنا أن هناك شيئًا ما ينتظرنا وعلينا أن نسعى إليه.. فقط إن أردنا الوصول.

***

النهاية

شكر خاص من القلب إليكم مع حفظ الألقاب، ومع خالص الاحترام لما قدمتموه لي من مساعدات ليخرج هذا العمل الى أيدي القراء في سلام..

أصدقائي من الكُتاب:

د. أحمد السعيد مراد، محمد الصفتي، محمد مُسعَد، محمود عبد العال

القارئة والصديقة دينا أحمد

على المستوى البحثي الصديقة التي جمعتني بها صُدفة

عزيزة محمد سعد وكيلة قسم الرجال في المستشفى النفسية ببورسعيد

وإليكِ أنتِ شكر لا يوفيكِ حقك أمام مساندتك وحبك وتشجيعك الذي لم ينقطع ليومٍ واحد لكي أتمم تلك

الرواية وتخرج للنور «دينا محسن» أنتِ الأخت التي لم تلدها أمي أدامك اللّٰه في حياتي.

أيضًا أُقدِّم شكري للقارئ العزيز الذي يقرأ حروفي الآن
/https:/
بين يديه.. شكرًا لوقتك الذي أعرتَني إياه وعلى صبرك على إتمام العمل وانتظارك الذي طال حتى أصبح بين يديك.

المَراجِع

- كتاب: فقدان الواقع واستعادته- سيرة ذاتية لفتاة فصامية/ ترجمة د. محمد أحمد خطاب، أ. مروة فتحي محمد مراجعة وتقديم أ. د. صفوت فرج .

- المرجع الإكلينكي في الاضطرابات النفسية ترجمة أ.د. صفوت فرج

- علاقات خطرة/ د. محمد طه

الأعمال السابقة

- ملف أزرق – رواية

- إجهاض جثة – رواية

للتواصل مع الكاتبة

/www.facebook.com/AlShimaaAbdelaal37



شكر خاص

أولاً وأخيرًا إلى أبي «أحمد عبد العال».. السماء التي أستظل بها وغطائي من برد الشتاء.. والسند الذي لم يخذلني يومًا.

أتمنى من الله أن يطيل في عمرك حتى أظل دومًا تحت عباءتك..

أما أنتِ يا أمي.. فأنتِ شمسي التي أهتدي بها في الظلام الذي يحيط بي .